اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

محمود عوض

شخصيات



دار المعارف

إهـــــــداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

إهــــــداء ٢٠١٠

دار الكتب و الوثائق القومية

القاهرة



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٤١٢]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوض ، محمود
شخصيات / محمود عوض
- ط ٣- القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٩) .
٢٤٠ص ؛ ١٧سم (اقرأ)
تدمك : ٥-٧٣٦٦-٠٢-٩٧٧-٩٧٨ .
١- تراجم
٢- مصر - تراجم
أ- العنوان .

ديوى ٩٢٠,٧

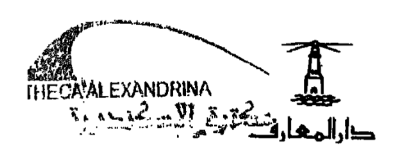
رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٩٠٥٣ ١/٢٠٠٩/٣٦

الناشر : دار المعارف- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

محمود عوض



الطبعة الثالثة



دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف

بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات

دار المعارف

إهــــــــداء

إلى القلم الذى أحببته
ودفـعت ثـمنـه مـبـكرا !

محمود



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين



دار المعارف بمصر

العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٢

مقدمة

حدث هذا منذ سنوات . .

استدعانى إحسان عبد القدوس ، رئيس التحرير الذى أعمل معه فى جريدة « أخبار اليوم » . .

وقال لى : ممكن تفكر فى موضوع تكتب عنه فى الصفحة الأخيرة هذا الأسبوع ؟ !

سألته مندهشاً : أى صفحة أخيرة ؟

قال إحسان : الصفحة الأخيرة من « أخبار اليوم » !

قلت محاولا تذكيره : إن كاتبها الثابت هو أنيس منصور .

رد إحسان : أعرف ذلك . . ولكنى أريدك أن تكتبها هذا الأسبوع . .

قلت : لماذا ؟

رد إحسان : لأن أنيس اختفى ، ولا أدرى أين هو الآن . . ولا متى سيرسل مقاله الأسبوعى . .

قلت له : صحيح أن اليوم هو موعد تسليم مقالات الصفحات الثابتة من الجريدة . . ولكن أنيس دقيق فى مواعيده كساعة سويسرية . . وربما نستطيع انتظار مقال أنيس حتى صباح الجمعة . .

فقد إحسان أعصابه لأول مرة منذ عشر دقائق . . ورد فى عصبية :

أنا هنا رئيس عمل ، ولست زعيم قبيلة ! أريد مقالا منك للصفحة الأخيرة غداً . . !

عند كلمة « غداً » أحسست أن إحسان وصل إلى النقطة التى يستحيل عندها التفاهم معه . .

بالطبع إحسان رئيس عمل . . ولكنه يتعامل معى بالحب . . وليس بالسلطة !

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأفكار لا تأتى للكاتب بقرار من رئيس التحرير . . حتى لو كان هذا الرئيس هو إحسان عبد القدوس ! إن إحسان بالنسبة لنا لم يكن أبداً « رئيساً » للتحرير . كان إحسان هو الصديق والأخ الأكبر والأب وحامل همومنا والمخفف عن آلامنا . كان واحداً ينتمى بحكم شهادة الميلاد إلى جيل آخر . . ولكن بحكم المشاعر ينتمى إلى جيلنا . . مضروب مثلنا ، متواضع رغم أنفه ، غنى بالأمل كأى شاب ، فقير فى السلطة كأى كفاءة ، مهزوم كأى فنان ، متقوقع على نفسه كأى موهبة . إنها مصر فى سنة ١٩٦٨ ، وإحسان الذى يستطيع أن يحرك جبلا . . برقته ، وليس بعضلاته !

لقد خرجت من مكتب إحسان مباشرة إلى منزل أم كلثوم !

وفى اليوم التالى عدت لإحسان بمقال عن أم كلثوم ، لكى يرسله إلى المطبعة فوراً ، وينشر فى العدد الذى صدر بعد يومين من أخبار اليوم !

فى الأسبوع التالى تكررت نفس القصة ، ولكننى فى هذه المرة كنت

أكثر تصميماً على مقاومة رئيس التحرير .

إننى قلت لإحسان : أنت تفهم أن مقالات الصفحة الأخيرة من أخبار اليوم كانت دائماً محجوزة للمخضرمين من الكتاب . إننى أشكرك على كل ثقتك فى . . وأرجوك فى نفس الوقت أن تعفينى من كتابتها . . على الأقل لأنى أنا الآخر أريد أن أستمتع بمقال لأنيس منصور ، وأنيس من قلائل كبار الكتاب ، الذى يجرى القارئ وراءهم بحب وشوق ومتعة .

رد إحسان ضاحكاً . خير .

بعد قليل خرجت منه كلمات أشبه بالتحية ولكنها أقرب إلى قرار الاتهام : اسمع . . أنا أصبحت رئيساً لتحرير مجلة روز اليوسف وعمرى ٢٥ سنة . . يظهر أنكم فى هذه الأيام جيل مدلل .

مدلل ؟ معقول يا إحسان ؟

فى اليوم التالى عدت له بمقال عن طه حسين . — وللمرة الثانية — نشره إحسان فى الصفحة الأخيرة .

ثم . . ظهر أنيس منصور ، بعد اختفائه فى الإسكندرية لمدة أسبوعين . فى هذه المرة كنت أول من نقل الخبر إلى إحسان . . ثم استدرت خارجاً من مكتبه .

نادانى إحسان متسائلا : إيه رأيك تكتب صفحة عن الشيخ الباقورى ؟

قلت : أى صفحة ؟

رد مبتسماً : أنت تكتب . . وأنا أنشر !

قلت : ما الذى تريدنى أن أكتبه عن الباقورى ؟

تساءل إحسان فى عصبية : من الذى يكتب ، أنا . . أم أنت ؟

كانت عصبية إحسان هى دائماً مثل جرس المدرسة .. انتهت الحصة . نتكلم فى موضوع آخر !

غلب إيه ده يا ربى ؟ ! هم رؤساء التحرير مالهم ؟ ألم يسمعوا أبداً عن اختراع . . اسمه الديموقراطية ؟ !

إننى خرجت من مكتب إحسان غير متحمس ، لا للكتابة ، ولا للباقورى . وظل هذا هو حالى إلى أن حان موعد تقديم المقال .

وبينما أنا فى حالة اختفاء كاملة عن إحسان وعن أخبار اليوم . . عثر على مصور زميل فى الجريدة وصاح متحمساً بمجرد أن رآنى : انت فين؟ الأستاذ إحسان كلفنى بأن أذهب معك إلى الشيخ الباقورى لكى أصوره بمناسبة المقال الذى ستكتبه هذا الأسبوع !

قلت له : ولكننى لم أكتب أى شىء . .

رد المصور مذعوراً : لا تكشفنا مع إحسان وحياة أبوك . . لقد علمت منهم فى الجريدة أنهم حجزوا صفحة خالية تماماً من الإعلانات . . لنشر هذا الموضوع . . صفحة غير الأخيرة

هنا سألته بحماس : تقدر تعمل صورة كبيرة ؟ على خمسة أعمدة أو ستة مثلا ؟

رد : يا ريت . .

شرحت للمصور فكرة الصورة ، والمعنى الذى أريده منها ، قبل أن

أفكر حتى فى التحدث تليفونياً مع الشيخ أحمد حسن الباقورى .

وذهبنا إلى الباقورى . ونشرت الصفحة بعنوان « اعتذار إلى الله » !

فى هذا اليوم بدأ إحسان اجتماعه الأسبوعى معنا بسؤال من جانبه : ما رأيكم فى هذه الصفحة الجديدة ؟ أنا قررت أن تكون باباً ثابتاً بعنوان « تحليل شخصيات » . . أو — من باب الاختصار — نسميها « شخصيات » ونظر إلى إحسان ضاحكاً وهو يقول : الصفحة دى . . عهدتك !

. . وبدأت « عهدتى » . .

وبدأت معها مسئوليتى . .

كان إحسان كبيراً فى ثقته ، فناناً فى أفكاره ، رقيقاً فى لهجته . . إنه لا يطلب ، ولكن يقترح . لا يفرض ولكن يثير الحماس . لا يقرر ولكن يوحى . هذا رجل فنان يريد منك أن تسمو وتكتشف !

وبدأت أختار الذين أكتب عنهم . .

كان كل شخص يمثل بالنسبة لى معنى أريد أن أقوله . وبقدر إحساسى بالمعنى . . كان يأتى انفعالى بالشخص . بعضهم كان الانفعال يبدأ معه بالاختلاف . . وبعضهم بالموافقة التى تتحول بعد الفحص إلى اختلاف !

وربما يجد القارئ فى هذا الكتاب سطوراً بين السطور . . وربما يجد معانى مشروخة . . وربما يجد أيضاً كلمات ناقصة . إنها مصر التى نعيشها ، ولا تقرأ عنها . إنها الكلمات التى يمنعها فلتر الرقابة والسلطة من الظهور إلى النور . إنها مصر ١٩٦٨ .

إنها أيضاً صدمة التوقعات لكل شاب يجد نفسه فجأة وسط غابة نسميها السلطه !

وفى هذه الشخصيات أيضاً عرفت دروساً كثيرة . . وابتسامات أحياناً !

وعندما أقرأ هذه الصفحات الآن من جديد . . فإننى فى الواقع أقرأ حلماً كبيراً ، كنت أحياه فى كل مرة . .

ويا عزيزى القارئ . .

ترفق بما ستقرؤه . .

فهذه الصفحات قطعة من قلبى !

محمود عوض

هذا المشاغب .. طه حسين !



- أخبار اليوم - عدد ٢٥ نوفمبر ١٩٧٢ .

لم أكن أنوى أن أكتب عن طه حسين .

* * *

طلب منى صديق أن أتوسط له عند طه حسين لكى يوافق على أن يسجل للتليفزيون حديثاً أدبياً ومناقشة محدودة .

* * *

وافق طه حسين .

* * *

سألت صديقى : كم من الأجر سيصرفه التليفزيون لطه حسين فيما لو تم تسجيل هذا الحديث ؟

بعد عملية جمع وضرب وقسمة وطرح وخصم ، المبلغ هو : ١٨ جنيهاً و ٦٠ مليماً !

بالصدفة ، سألت عما تتقاضاه راقصة مبتدئة عن المدة نفسها . فعلمت أن ما تتقاضاه حضرة الراقصة المبجلة هو ٢٨ جنيهاً .

إننى لم أمتعض ، ولم أبتهج . فقد فهمت الدرس بوضوح : إن هز البطن أهم لمجتمعنا كثيراً — وكثيراً جداً — من هز العقل . قلة عقل .

* * *

حكاية سمعتها من محمد عبد الوهاب لثالث مرة :

« . . . منذ ٣٥ سنة سافرت إلى لبنان مع أمير الشعراء أحمد شوقى .

لقد ارتبطت هناك بالغناء فى عدة حفلات . . كان أحمد شوقى — رحمه الله — يشملنى برعايته كعادته .

« . . وفجأة قرأت فى جريدة « المقطم » التى وصلت من القاهرة خبر وفاة أبى . . هذا الخبر أصابنى بصدمة بالغة قبل ساعات قليلة من غنائى فى حفل مقرر بمدينة (عالية) . .

« .. كان من الطبيعى أن أعتذر عن عدم الغناء ، بعد أن أصابنى انهيار نفسى ، وفى ذلك المساء أخذنى أحمد شوقى إلى الدكتور طه حسين الذى كان يصطاف بالمدينة نفسها ، وروى له ما حدث . . .

« . . فجأة قال لى طه حسين : لماذا لا تغنى ؟ . ولماذا تعتذر عن حفلتك ؟ . هل الغناء فرح فقط ؟. إن الغناء تعبير وقدرة على التعبير . إن الفن يستطيع أن يعبر عن الفرح ، ويعبر عن الحزن أيضاً . فى الفن سعادة . وفيه ألم . وبدلا من أن تعبر عن ألم بالدموع .. عبر عنه بفنك »

* * *

سألت طه حسين عن هذه القصة فقال : « نعم ، نعم ، نعم . . فى تلك الليلة غنى عبد الوهاب . . فى تلك الليلة لم تكن دموع عبد الوهاب هى فقط التى تحس بفداحة المصاب ، كانت دموع الجمهور هى أيضاً تساهم فى العزاء » . .

* * *

كما هى العادة ، كان حديثى مع طه حسين هو مجرد دردشة . حينما يثرثر الإنسان فإنه يتناول فى ثرثرته موضوعات وأسماء لا رابط بينهما .

الأسماء التي تناولها طه حسين كثيرة . .

عن توفيق الحكيم مثلا يقول : « . . إن أول كتاب له آثار اهتمامي هو مسرحية أهل الكهف . . لقد قمت بتقديمه للناس والكتابة عنه وتشجيعه لأنني رأيت فيه مستقبلا عظيماً بالنسبة للكتابة المسرحية . بعدها بفترة قصيرة كتب هو شيئاً في الفلسفة – كتاباً على ما أتذكر – فكتبت أنا أنصحه بأن يتعمق في الفلسفة بأكثر مما فعل ، وإنه يكون أكثر توفيقاً عندما يكتب في المسرح . كان هذا رأيي الذي لم يتقبله توفيق الحكيم بصدر رحب » .

قلت : ولكني ، أعتقد أن هذا الخلاف في الرأي لم يستمر ، لأنكما اشتركتما بعد ذلك في تأليف كتاب واحد . .

– لا . . لم يستمر ، لأننا تكلفنا نسيان أسبابه . .

– والآن ؟

– الآن لم يتغير رأيي كثيراً في توفيق الحكيم ، وإن كان قد زاد عليه شيء من العتاب أحتفظ به نحوه .

– ونجيب محفوظ ؟ .

– نجيب لا يعجبني في الفترة الأخيرة ، أو ربما لا أتابعه أنا بدرجة كافية . على أي حال ، أنا أعجبتني جداً قصصه المبكرة .

– وإحسان عبد القدوس ؟ .

– عتابي على إحسان أنه لم يرسل لي ولا واحد من كتبه ! ! .

– وهل تحب أن تقرأها ؟ .

ــ طبعاً ، طبعاً . . على كل ، أنا رأيى فى إحسان أنه كويس .

* * *

إن طه حسين فى حديثه ، يعطينى دائماً انطباعاً غير عادى ، إننى أحس أنه لم يكن أبداً مجرد شخص يريد أن يكون كاتباً ، أو أديباً ، أو مفكراً . . هذا رجل أراد أن يعيش . . يعيش عصره ، ومجتمعه ، وتحدياته . يعيش . . بكل الحب الطبيعى للحياة ، والحرية ، والفرصة ، والتجربة ، والتضحية . . التضحية التى صنعت الثورة العظيمة فى مصر سنة ١٩١٩ ، ثورة أعطت وهماً كبيراً فى بداية هذا القرن ، بأن مصر سوف تتفتح هكذا إلى الأبد ، وسوف تعيش عصرها هكذا إلى الأبد . ثورة سوف تعطينا سياسة وثقافة وعلماً وفنًّا وأدباً بغير حدود ، وانطلاقاً بغير سلاسل .

نعم ، طه حسين أراد فى بدايته أن ينزع السلاسل من عقل مصر . . من عقل الجيل الذى عاصره وخرج عليه وتمرد ضده . إنه فى تمرده كان جادًّا ، وفى حديثه كان نموذجاً عصريًّا للأديب والفنان الذى جاء به القرن العشرون . أديب لا يعتمد على الأفيون ، مثل كولريدج ، ولا على الحشيش . . مثل سيد درويش ، أديب لا يعتمد فى عمله على خمسين ألف فنجان قهوة ، مثل بلزاك ، ولا يعيش فى غرفة مغلقة هرباً من دائنيه . . مثل بروست . أديب يأخذ الأدب بجدية . . وفنان يعطى فنه بغير مخدر . . أو خمر . . أو شذوذ .

نعم ، كان طه حسين قاسياً على نفسه أولاً ، لكى يكون بعد ذلك قاسياً على مجتمعه .

المنزل :

طلبت المخرج السينمائى يوسف شاهين وطلبنى .

فى التليفون سألته : لماذا زرت طه حسين أمس ؟ .

رد : أبداً . . يعنى . . أصل . .

قلت : بمناسبة تفكيرك فى تحويل كتاب طه حسين « الأيام » . . إلى فيلم سينمائى . . ماذا أعجبك فى القصة ؟ .

رد يوسف شاهين : شرق . أزيك . سينما . سلطان . نوم . النور . حذاء . مكوى . خدامة . عندى . أسود . دوفينير . تدخل . مين ؟ . هائل . إسكندرية . ناس . عمر الشريف . سمك . شجرة . آه . . . هوليود . فوق . جذاب . عين . ثلاثة . ليلة . سعيدة . نصف . . . . . .

قلت (مقاطعاً) : يوسف . . أنا أسألك لغير النشر . . فلتكن كلماتك مفهومة .

رد يوسف شاهين : آه . . كده ؟ . طيب . . أعجبنى فى « الأيام » قدرة الدكتور طه حسين العظيمة على تحليل الشخصيات نفسياً من الداخل ، ثم تجسيمه لأشياء كثيرة ، بحيث تحس وأنت تقرؤها كأنها مجسمة أمامك . . أعجبنى أيضاً القيمة الإنسانية التى تعبر عنها ذكريات طه حسين فى « الأيام » . . قيم استطاعت الحضارة الحديثة أن « تغلوش » عليها . . بحيث أصبح عقل الإنسان عاجزاً عن استخراج المعانى البسيطة للحياة . . أنا نفسى — وأتمنى — أن أخرج بشىء من هذا فى فيلم سينمائى . .

قلت : من الذى تتصوره لأداء دور طه حسين ؟ .

رد يوسف شاهين : شرق . أزيك . سيما . سلطان . نوم . نور . الخ .. الخ . الخ . .

* * *

« الأيام » :

« .. حادثة واحدة حدت ميله — طه حسين فى صباه المبكر — إلى الاستطلاع ، وملأت قلبه حياء لم يفارقه إلى الآن .. كان جالساً إلى العشاء بين إخوته وأبيه ، وكانت أمه كعادتها تشرف على حفل الطعام .. ترشد الخادم وترشد أخواته اللائى كن يشاركن الخادم فى القيام بما يحتاج إليه الطاعمون . وكان يأكل كما يأكل الناس . ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب !! . ما الذى يحدث لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه ، بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟. وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟. لا شىء وإذن .. فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها فى الطبق المشترك، ثم رفعها إلى فمه .. فأما إخوته فأغرقوا فى الضحك . وأما أمه فأجهشت بالبكاء ، وأما أبوه فقال فى صوت هادئ حزين : ما هكذا تؤخذ اللقمة يابنى .. وأما هو .. فلم يعرف كيف قضى ليلته » ..

لا أدرى لماذا أعود دائماً لقراءة هذه الفقرة من كتاب « الأيام » ، ولا لماذا وضعت خطوطاً تحتها .. هل لبساطتها ؟ . لقوتها فى التعبير ؟ لبراعة الطفل فيها ؟ . لصراع خياله المبكر فيها مع قوة التقاليد ؟ . أو لأنها تجربة

تبشر بالروح التى خاض بها طه حسين حياته بعد ذلك ؟ .

لقد انتقلت هذه الرغبة فى التجربة بعد ذلك من يد طه حسين إلى عقله .. لقد حرص طوال حياته الفكرية بعد ذلك على أن يقول للناس إنه لا شيء مقدس .. لا شيء يعلو على العلم والفهم والتجربة . لا شيء يتحصن ضد المناقشة والتأمل وإعادة النظر . لا شيء . ولا أحد .

* * *

يتنفس الإنسان كثيراً ، ثم فجأة يخطر بباله سؤال : لماذا يتنفس ؟ .

أيضاً : يقرأ الإنسان لطه حسين كثيراً ، ثم فجأة يسأل نفسه : لماذا طه حسين بالذات ؟ . لماذا نقرأ له الفكرة نفسها مرة وعشرين مرة .. وتظل فى كل مرة لها المتعة نفسها .. والتأثير نفسه ؟ .

تفسير بسيط .. إن ما يدفعنى إلى طه حسين شيء أكبر من كل أفكاره ، وكل كتبه . يدفعنى إليه الوفاء . الوفاء لمعنى ، لقيمة ، لتاريخ ، لمبدأ . . لرجل صاحب مبدأ ، لمحارب . طه حسين محارب . لقد عاش دائماً كمحارب. كم سنة عاشها .. بغير ما يكفيه من النقود ، من الطعام، من الملابس ، من المأوى ، من الأمن ؟ . كم معركة خاضها وهو مستعد لأن يرهن حياته فى أقرب نقطة بوليس .. مقابل رأى واحد يؤمن به ؟ ! . كم إهانة تلقاها ؟ . كم حرمانا عانى منه ؟ ! . كم تهمة وجهت له ؟ ! .

كافر وزنديق وملحد .. خارج عن الصف والطاعة والقانون والإسلام محرض على الخلاعة والإباحة والفسق والفجور ..

هذه مجرد عينة من القذائف التى أصابت طه حسين . قذائف لم

تصيبه فقط فى سمعته ، وإنما امتدت شظاياها إلى حياته ومرتبه ووظيفته ..
لقد نقلوه من منصبه الجامعى مرة ، وفصلوه من الخدمة نهائياً مرة . إن
قرار الفصل صدر ضده من مجلس الوزراء مجتمعاً . هكذا — دفعة واحدة —
تحول طه حسين شخصياً إلى مشكلة قومية فى سنة ١٩٣٤ . هكذا قضت
عليه السياسة بأن يظل سنوات وسنوات موضوعاً فى القائمة السوداء التى
ينبذها المجتمع وتحاربها الحكومة .

ولقد كان هذا كله بسبب موقف سياسى واحد لطه حسين : كتاب
أصدره ، وقال فيه رأيه « فى الشعر الجاهلى » .. كتاب ظل محل جدل
وأخذ ورد .. إلى أن تراكمت بعده مواقف طه حسين ضد السياسة ،
فصدرت ضده العقوبة فى النهاية ، ليس باعتباره مفكراً .. ولكن كمتمرد ..
كمشاغب .

* * *

المشاغب :

أفكار تراودنى عن تاريخ طه حسين . أفكار تنتهى إلى نتيجة واحدة ،
إنه كان مشاغباً ، كان فى رأى السياسة والسياسيين مشاغباً ، رجل لا يريد
أن يغلق فمه .. لا يريد أن يغلق عقله ويصفق مع الذين يصفقون ..

هذه الكلمات مثلا :

« . . . كانت رائعة بارعة خطبة العرش التى ألقاها رئيس الوزراء فى
البرلمان ، صورت لنا الحياة المصرية كأحسن ما تكون حياة الأمم : حكومة

جادة لا تنام ولا تنيم ، وشعب عامل لا يريح ولا يستريح ! . وقد رضيت الحكومة عن نفسها فأثنت على نفسها ، ورضى البرلمان عن الحكومة فصفق للحكومة ، وسمع الشعب للحكومة تقول والبرلمان يصفق ، فهز الأكتاف وهز الرءوس ، وترك الخلق للخالق .. وأقبل المترفون على ترفهم ينعمون بغير حساب ، وأقبل المحرومون على حرمانهم يألمون بغير حساب »..

كلمات كتبها طه حسين سنة ١٩٤٧ بعنوان « جوع وأحاديث » . كلمات من نار ، وسخرية من مرارة .

قبلها بـ ١٤ سنة كان موقف طه حسين — عميد كلية الآداب — مع وزير المعارف .

سأله الوزير : نريد أن تمنح كلية الآداب — وأنت عميد لها — الدكتوراه الفخرية لعدد من أنصارها السياسيين .. ممكن ؟ .

ويومها رد طه حسين : يا باشا .. عميد كلية الآداب ليس عمدة .. يتلقى التعليمات من مأمور المركز فينفذها . . هذه جامعة ، وليست عزبة ! ! .

كلمات قالها طه حسين .. واستعاذ بالله .. استعاذة لم تعفه من الفصل والتشرد والبقاء فى منزله يستدين نفقات حياته من أخيه ، يستدين بكبرياء .

* * *

نحن جيل مشحون بالكهرباء !

فى الطريق إلى غرفة نوم طه حسين . كنت أحس أننا – نحن الجيل الجديد – جيل مشحون بالكبرياء . من اليمين واليسار يحاولون أن يسحبوا منا الكبرياء . هم المطرقة ، ونحن السنداد . نحن الأغنية ، والموسيقى والكلمة وغداً . نحن البلد . نحن مصر . تراب مصر . وقودها لحظة الأزمة ، وترابها فى فترة الراحة . نحن جيل محكوم عليه بالراحة ، راحة من الحياة .. وإعفاء من المسئولية .

مع ذلك فنحن جزء من الحياة ، إن لم يكن اليوم فغداً ، أو حتى فى القرن القادم : يوم نستبدل بالغرور الأمانة ، وبالوهم الحقيقة ، وبالكذب الصدق ، وبالراحة المسئولية .

هل ننجح فى ذلك ؟ .

أكيد .. إذا لم نعط لمجتمعنا السمو .. فعلى الأقل نخفف عنه الألم .. إذا لم نحقق له الأمل.. فعلى الأقل نصحح الوسيلة، إذا لم نعطه الحقيقة .. فإذن : الاقتناع .. إذا لم نشع فيه الأمانة .. فإذن : التفكير فيها .. إذا عجزنا عن الصراحة .. فعلى الأقل نقضى على النفاق .. إذا لم نعط لمجتمعنا العاطفة ، والقلب ، والإحساس . . فعلى الأقل نعطيه عقــلا أفضل ..

إلى أن يحدث هذا فلا بأس من أن نعترف بما نحن عليه .. لا بأس من أن نقف فى موقف الدفاع . نعم .. نعم .. نحن جيل التليفزيون والجاز

والشعر الطويل والكرة والفوضى .. نحن جيل بليغ حمدى وعفاف راضى وعادل إمام والشرق الأوسط ونجلاء فتحى وبابوبيا . نحن أيضاً جيل الأتوبيسات المزدحمة والتليفونات الخرساء والصوت المختنق والنور المتقطع والنفس المتقطع . . نعم .. نعم . ليكن كل هذا ، نحن كل هذا . نحن فوق هذا . فوق النفاق والكذب والانتهازية وتقتلنى أو أقتلك . نحن الصراحة نحن الصدق .

و ... فاض الكيل

* * *

طه حسين يتكلم .. يقول من جديد ويتكلم :

« .. كنا على أيامنا نهتم بالاختيار والتوجيه والتصحيح ، اختيار المواهب وتوجيه الأجيال الجديدة وتصحيح الأخطاء المتراكمة .. الآن لا أرى شيئاً من هذا . أرى إهمالا — فوق إهمال — للجيل الجديد فى كل شىء ، لا أريد أن أقول إننى أرى هجوماً ضد الجيل الجديد .. أنا شخصياً متفائل عموماً .. متفائل ، خصوصاً بكل جيل جديد » .

هذا طه حسين يتكلم .

عندما يتكلم فإننى أحس أن كلماته هى حديث رجل يفرغ جيوبه أمامى بغير توقف ، إنه لا يتحدث بكلمات ، يتحدث بأشياء ، بحقائق بأفعال ، بتجارب . إنه لا يحتاج إلى صفات ، يحتاج فقط إلى أفعال وأسماء ومواقف .. نعم : مواقف ، مواقف ، مواقف .

إنه أمامى يشبه سمكة شفافة فى حوض شفاف ، إننى أستطيع أن أرى

عظامه ، رئتيه ، قلبه ، كليتيه ، أمعاءه .. أستطيع أن أرى الكرات الحمراء في دمه تتحرك .. أستطيع أن أرى في داخله نجوماً تتهاوى وكواكب تدور . إن الصمت – حتى الصمت – الذى يخلقه فى حديثه أحياناً يمكن أن يصيبنى بالصمم ..

إن الصوت عميق ، ولكن مؤثر . الإيقاع بطىء لكن محسوب . الابتسامة قليلة ، ولكن رنانة . الهدوء واضح ، ولكن مشحون بالانفعال . إن لهجته وتعبيراته جادة ، وساخرة . إن فى ذكرياته غالباً تكشيرة فى الطريق إلى وجهه ، قبل أن تغير رأيها عند شفتيه .. إن ابتسامته هى علاج بأكثر مما هى تعبير . علاج للمرارة فى جزء كبير من ذكرياته – من ذكريات يختارها طه حسين ويرتبها فى ذاكرة مدهشة غالباً ، ولكنها أصبحت تخونه أحياناً .

من الذاكرة يقول طه حسين :

« .. إننى أخطأت عندما كتبت نقداً مرة لكتاب « النظرات » الذى أصدره المنفلوطى ، كنت غير موضوعى فى نقدى ، لأننى ركزت على اصطياد الأخطاء اللغوية له ، بدل أن أركز على نقد موضوع الكتاب . . هذا شىء مرت عليه أكثر من خمسين سنة ، ولكننى أستحى حتى الآن من تذكره . .

« .. أخطأت أيضاً خطأ بالغاً عندما قررت إلغاء تدريس اللغات الأجنبية فى التعليم الابتدائى وأنا وزير المعارف .. كنت أريد أن أقوى معرفة التلاميذ باللغة العربية ، ووقتها تصورت أن تدريس الإنجليزية يؤثر

على استيعابهم للإنجليزية ، رأى خاطئ وقرار خاطئ ما زال مستمراً . . لا التلميذ استمر يدرس لغة أجنبية ، ولا هو — حتى — أصبح يعرف لغته العربية ! .

« .. طبعاً ، طبعاً ، أنا فكرت أكثر من مرة فى إعادة النظر فى كتابى : مستقبل الثقافة فى مصر . . لقد سجلت فى الكتاب ملاحظاتى على الثقافة فى مصر سنة ١٩٣٦ ، ولو عدت إلى تأليفه اليوم من جديد فسوف أقول : زفت . . مستقبل الثقافة . . زفت » !

* * *

حكاية :

روى لى الدكتور السيد أبو النجا المشرف العام على دار المعارف هذه الحكاية :

« .. كنت مديراً لجريدة المصرى ، يعمل معى صحفى يتأخر فى تقديم مواده . . فتتأخر الجريدة بسببه ، وبعد أن تم إنذاره أكثر من مرة تقرر فصله من العمل ، فوصل الخبر إلى الدكتور طه حسين — وكان الصحفى أحد تلاميذه فى كلية الآداب — فغضب لذلك غضباً شديداً . وعلمت أنا بالأمر . . فاتصلت به تليفونياً . لأعرف سبب غضبه . . ودارت بيننا هذه المناقشة :

— هل صحيح يا دكتور طه أنك غاضب منى ؟

ـ ورد طه حسين : ومن أدراك يا سيدى أنى غاضب ؟ هل هى عقدة الذنب ؟

قلت : أؤكد لك يا دكتور أننى لا أشعر بخطأ ، فضلا عن ذنب . ولكننى أجد من واجبى أن أسترضيك حين تغضب .

ـ يا سيدى أنت مدير ، ومن واجبك أن تحضر وأن تنصرف فى مواعيد محددة . . أما الكاتب فهو يكتب حين يستوحى . . لا حين تريد أنت .

قلت : إنه ـ حين تعاقد معى على أن يعمل صحفياً ـ قد قبل أن يقيد نفسه بمواعيد الجريدة . .

قال : لا يا أخى . . إن حرية الكتابة لا يمكن تقييدها بعقود .

قلت : ليكن . . وكفى هذا الصحفى أنه تلميذك لكى يستحق العودة إلى عمله . . إننى كمدير أرى أن الحفاظ على صداقتك للجريدة كسب يزيد كثيراً على خسارتها بإعادة تلميذك .

رد طه حسين : إنك تعتقد أن منطق المكسب والخسارة هو منتهى ما يصل إليه النجاح . وأنا أؤكد لك أن فى الحياة من المثل العليا ما يعلو كثيراً على هذا المنطق .

قلت : هذا درس جديد أضيفه إلى مكسبى . . وانتهى الحديث .

* * *

الإسكندرية :

من وقت لآخر يحلو للإنسان أن يقطع الحبال التى تشده إلى الناس والواقع والظروف . من وقت لآخر يريد الإنسان أن يصبح كبالون اختبار انقطع حبله الذى يشده إلى الأرض فأصبح يتحرك مع الريح بقوة وضعف يميناً ويساراً . . شرقاً وغرباً !! .

من وقت لآخر يمر على صديقى الفنان بليغ حمدى ، لكى نصبح معاً فى هذه الحالة البالونية الغريبة . . حالة دفعتنا هذه المرة إلى الإسكندرية . . فجأة قررنا أن نذهب وحدنا إلى المدينة التى نحبها : الإسكندرية . ثم فجأة قررنا أن نعود إلى المدينة التى نعيش فيها : القاهرة . .

فى الطريق إلى القاهرة سألنى بليغ حمدى : لماذا التعجل ؟

قلت : لأننى أريد أن أرى طه حسين . . إحساس غامض فى داخلى يدفعنى إلى أن أزوره فى منزله الليلة ! .

قال : ولماذا الليلة ؟ . .

ـــ لا أعرف .

بعد لحظات من الصمت سألته : هل قرأت شيئاً لطه حسين ؟ .

ـــ طبعاً . . كثير .

ـــ ماذا ترى فى أسلوبه ؟ .

رد بليغ حمدى ـــ بانفعال وفن وموسيقى : يعجبنى فيه الموسيقى ، يعجبنى الإيقاع ، إننى من أول ثلاثة أسطر أحس أن هذه الكلمات

كلمات طه حسين ـ ليس لها فقط وقع فى عينى وإنما لها إيقاع فى أذنى ، لها رنين ، لها نغمة ، لها موسيقى تجعلنى أقول على الفور : هذا أسلوب الدكتور طه حسين . .

* * *

الهرم :

ـ ماله الدكتور طه حسين ؟ .

ـ إن شاء الله خير . . إنها مجرد وعكة بسيطة ألمت به ظهر اليوم ، كان هنا أعضاء لجنة من مجلس الآداب والفنون ، جاءوا للاجتماع به ، وبعد ساعتين من الاجتماع شعر بآلام حادة فى معدته ، لقد ظل يتكتم الألم ويتحمل إلى أن انتهى الاجتماع بعدها بساعة . . بمجرد انصرافهم طلب أن ننقله إلى السرير ، وطلبنا نحن أن يحضر الطبيب . . نحن فى انتظار الطبيب .

هكذا سمعت الكلمات بطيئة فى بيت طه حسين بالهرم ، سمعتها بالإرهاق نفسه والملابس التى عدت بها حالا من الإسكندرية . . فعلا ، ربما كان هذا هو تفسير شعورى الغريب بأنى لابد أن أذهب لطه حسين الليلة . . خير . إن شاء الله خير .

* * *

الثلاثاء :

« إن شاء الله خير ، جاء الدكتور وقال : خير ، تفضل . . . »

هكذا أخبرنى سليم سكرتير الدكتور طه . لم أتفضل. لقد رأيت الدكتور طه يستمع إلى صوته المفضل والوحيد : أم كلثوم . إننى اطمأننت ، واستدرت خارجاً . فى الطريق إلى الباب تصفحت بعض الكتب التى وصلت حالا مهداة لصاحب المنزل .

إهداء من نجيب محفوظ : « إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين .. رمز إجلال وحب يفخر به الأدب العربى فى جميع العصور ».

إهداء آخر من يوسف السباعى : « إلى أستاذنا الكبير عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين . . مع خالص المودة والتقدير » . .

إلخ .. إلخ ... إلخ ...

* * *

الكويت :

حكاية سمعتها فى الكويت منذ سنتين ، رواها لى الدكتور أحمد زكى المدير الأسبق لجامعة القاهرة ورئيس تحرير مجلة « العربى » :

كان أحمد زكى وكيلا لكلية العلوم وكان العميد إنجليزى الجنسية ، وعندما انتهت مدة العميد الإنجليزى فى سنة ١٩٣٦ ، قام أساتذة الكلية بانتخاب الدكتور أحمد زكى عميداً . وطبقاً للقانون فقد أرسل القرار إلى

وزير المعارف لاعتماده ، وهنا اعترض الوزير على قرار أساتذة الكلية . . لأن أحمد زكى لم يكن من رجال الحكومة . كان رجل علم . . ولم يكن رجل سياسة .

وهنا أثارت المعارضة أزمة فى البرلمان حسمها رئيس الوزارة بقوله : إن القانون يعطينا الحق — كحكومة — فى أن نوافق . . أولا نوافق . . هذا كل شىء .

وبدون علم أحمد زكى ، ذهب طه حسين إلى رئيس الوزراء — متطوعاً — وسأله : عملتم إيه فى المشكلة ؟

رد رئيس الوزراء : مشكلة إيه ؟

قال طه حسين : مشكلة أحمد زكى .

— أحمد زكى . . مين ؟

قال طه حسين : يا أخى . . إن كان رجال السياسة لا يعرفون أقدار أهل العلم والفكر ، فهذه مشكلة رجال السياسة . إن أقدار الناس وقيمتهم لن يحددها فى النهاية أن تعرفهم أنت أو تتجاهلهم .

كلمات قالها طه حسين لرئيس الوزراء . وانصرف غاضباً !

إنه بعد ذلك لم يسكت . ولم يجامل . . لم يشتر ود رئيس الوزراء بالصمت . لم يرض — حتى — أن يقف الأمر عند هذا الحد . لقد ظل يحارب ويحارب . إلى أن أعيدت لأحمد زكى كرامته الضائعة .

وفى الوقت نفسه ، لم يعلم أحمد زكى بحقيقة دور طه حسين إلا بعدها بأربع سنوات . وعندما علم بالأمر . . بكى !

نعم . . حتى وهو يروى لى الحكاية فى منزله بالكويت منذ سنتين . . بكى !

* * *

يتساءل الإنسان أحياناً : ما هى مهمة المفكر ؟

هل المفكر مهمته أن يؤلف كتاباً أو كتابين ، يرفع شعاراً أو شعارين ثم يستدير بعد ذلك إلى حياته هادئ النفس مستريح البال ؟

هل المفكر مهمته أن يصفق للسيف . . طالما هو بعيد عن رأسه ؟

لا . ليس المفكر كذلك . . أبداً .

طه حسين لم يكن كذلك . . أبداً .

لقد أعطانا طه حسين من أفكاره وكتبه الكثير . ومع ذلك فإننا نظلم طه حسين كثيراً لو قسناه فقط . . بكتبه . إننى أحس دائماً أن حجم طه حسين الحقيقى أكبر من كتبه . . أكبر كثيراً . طه حسين ليس كتاباً صدر . . ولا هو شعار تردد . طه حسين فارس . مفكر كالفارس . إن حياته وفكره لم يكونا أبداً شيئين منفصلين . إن حياته تفسر أفكاره . وأفكاره تفسر حياته . لا ازدواج أو انفصال فى الشخصية . لا نفاق . لا شهرة عن طريق النفاق . لا مركز كسبه على جثة غيره ، ولا نقطة سجلها على حساب مبادئه . ربما من أجل هذا أقول : إن حياة طه حسين سوف تكون هى نفسها أحسن وأعظم كتاب يصدر عن طه حسين !

* * *

الأربعاء :

اطمئنان وحديث وخطاب وصل من ابنه مؤنس ، وسؤال منى عن مؤنس .

قلت لطه حسين : هل كنت تسمح لأولادك بالاختلاف معك فى الرأى ؟ .

رد الرجل واثقاً فخوراً : طبعاً .. فمن الذى قال إن أبناءنا لا بد أن يكونوا على شاكلتنا ؟ . هم شباب ، ونحن شيوخ . . هم عصر .. ونحن عصر . . هم رأى . . ونحن رأى آخر .

بين هذه الكلمات تراوحت مناقشتنا فى بيت الدكتور طه حسين ، بيت يعيش فيه صاحبه كالصينيين القدماء .. حينما كان الفنان أو الفيلسوف يبدأ فى الشعور بالشيخوخة ، فإنه يعيش ويتأمل فى سلام .

.. طه حسين يتأمل فى سلام . إن فى تأمله شيئاً حقيقياً من الطبيعة الصينية . إنه مثل الحكيم فى القصة الصينية القديمة . حكيم سألوه مرة : لماذا لم تحقق أبداً المعجزات التى تنسب لتلميذك ؟ . فأجاب : « إن الله قادر على أن يعمل هذه المعجزات ، ولكنه أيضاً قادر على أن يمتنع عن عملها » . .

نعم ، طه حسين لم يكن أبداً نشيطاً . . لم يكن يعنيه أن يكون نشيطاً ، كان يعنيه فقط أن يرفض ، أن يعترض . إنه لم يكن متمرداً ، كان ثائراً ، ثائراً ضد الجيل الذى انتمى إليه .

بهذا الاعتبار — فقط — أحييه فى عيد ميلاده ال ٨٣ ، تحية ضائعة ولا معنى لها ، لأنه هو شخصيًّا لا يتوقعها .

هل أنت تحيي الشجرة لأنها تنشر ظلالها ؟! .

* * *

لم أكن أنوى أن أكتب عن طه حسين .

اعتذارٌ إلى الله



- أخبار اليوم . . عدد ٦ يناير سنة ١٩٦٨ .

هو الله :

هو الخالق . . . ولا تشكرونه .

هو القادر . . . ولا تطيعونه .

هو النور . . . ولا ترونه .

هو الهادى . . . ولا تسيرون وراءه .

هو العزيز . . . ولا ترغبونه .

هو العليم . . . ولا تعرفونه .

هو السميع . . . ولا تخاطبونه .

هو العدل . . . ولا تتبعونه .

هو الغنى . . . ولا تطلبونه .

هو الرحيم . . . ولا تصارحونه .

هو الوهاب . . . ولا تخدمونه .

هو المنتقم . . . ولا ترهبونه .

هو القهار . . . ولا تخشونه .

هو المجيب . . . ولا تدعونه .

هو الله . . . ولا تعبدونه .

فإذا أدانكم . . . فلا تلوموه .

و . . كانت هذه أسطورة قديمة تحكى كيف تكلم أحد الحكماء إلى الناس . . . عن الله .

* * *

أنا الباقورى . . .

تسألنى عن نظرة الناس إلى الدين فى هذا العصر . وأنا أرد عليك بأنه حدثت فى التاريخ الإسلامى انطلاقات عديدة من قيود الدين . . فالدين يقف دائماً حاجزاً بين الإنسان وشهواته . . وإذا نظر الناس إلى الدين نظرة ذاتية فقد يجدون فيه من القيود ما يودون الانطلاق منها . ولكننا يجب أن ننظر إلى الدين منقطعاً عن البيئة التى يعيش فيها والعصر الذى يخاطبه . فى عصرنا هذا تنوعت صور الشهوات التى يشهدها الإنسان فى العالم كله . . وبرغم ذلك نجد فى مجتمعنا حرصاً شديداً على متابعة البرامج الدينية فى الإذاعة مثلا . فالنظرة النسبية للأمور تلطف حدة مشاعرنا وأحكامنا . . وهى تؤكد أن المشاعر الدينية فى هذا القرن تنفذ إلى نفوس الناس من خلال العقبات الكثيرة التى أنتجتها الحضارة المعاصرة . .

من الطبيعى أن الإنسان فى لحظات ضعفه يزداد تمسكه بالدين . . فالإنسان ضعيف فى حد ذاته . وضعفه هذا يدفعه إلى البحث عن القوة الأعلى منه . وتقربه إلى الله يتزايد فى فترات ضعفه . .

وأنت تلاحظ — مثلا أن النكسة التى أصابتنا بعدوان إسرائيل هى من أبرز أسباب الاحتماء بالله وبالدين فى مجتمعنا .

وأنت تسألنى عن الدين فى حياة أولادى . . حسناً . . أنت تعلم أن

لى بناتاً ثلاثاً . إنهن طبعاً يؤدين فريضة الصيام دائماً . . أما الصلاة . . آه . . فعلا . . إنهن كشأن معظم الناس دائماً . . لا يتذكرنها إلا وقت الشدة . . وهو أمر يؤسفنى .

ثم . . ماذا . . ؟ هل هذا يذكرك بسؤالى عن طريقة تربيتهن؟ لا . . لا تجد حرجاً يا أخى . . ولكننى أقول لك إن سيدنا على بن أبى طالب كان يقول: « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم وأمهاتهم » . وقد هزمنى هذا العصر أحياناً فى تربية أولادى . . وهزمته أنا أحياناً أخرى . . فلسوء الحظ مثلا . . واحدة من بناتى تدخن السجاير . . ولحسن الحظ مثلا إن بناتى ـ بما فيهن هذه التى تدخن ــ يتمسكن تماماً بآهداب الدين .

أنا ليلى :

ليلى أحمد الباقورى . عمرى ٢٦ سنة . متزوجة مثل أختى الأخريين عزة ويمنى . . أنت تسألنى عن نظام أبى فى تربيتنا . . طبعاً نحن عشنا حياة عادية مثل أى أسرة عادية . وطبعاً تستطيع أن تتوقع شيئاً كثيراً من مراعاة آداب الدين . . وهذا صحيح . . ولكننى لا أذكر أن أبى أجبرنا يوماً على التدين . . لا . . لم يستعمل معنا هذا الأسلوب . . ولكن نشأتنا نفسها هى التى جعلتنا نحس بمتعة الدين . .

ولم نكن لنتفق معه دائماً . . كان يحدث أحياناً أن نختلف . . ونحن أصدقاء عندما نختلف . . فهو لا يلجأ إلى سلطته كأب عندما نختلف

معه . . ولكنه يقنعنا كصديق . . إما أن لقتنع نحن . . أو يقتنع هو . .
تستطيع طبعاً أن تتوقع النتيجة . فنحن اللاتى كن نقتنع فى معظم
الأحيان . . !

أنا الصحفى :

والحديث بينى وبين الباقورى حديث دائرى كأتوبيسات هذه الأيام ..
فالكلام مع ابنته باب خلفى إلى شخصيته هو . . والجلسة تجرى فى غرفة
الصالون بمنزل الباقورى فى مصر الجديدة . . والرجل يجلس فوق أحد كراسى
الصالون . . ظهره مستقيم تماماً . . يتحدث ببطء ، يتقدم أحياناً نحو السرعة.
يتوقف عن الحديث بين لحظة وأخرى . حكم السن . وجهه نحيف صديق. شعر
رأسه فى صراع بين اللونين الأبيض والأسود. والرجل يخفى هذا الصراع تحت
طاقية باكستانية يرتديها فوق رأسه. نظارته الطبية التى يكلمنى بها هى إحدى
نظارتين يحتفظ بهما . يده اليمنى تساعده فى الحديث عندما يتكلم واليسرى
تستمع . يرتدى بلوفر أزرق مع بنطلون أسود فوق كرسى أخضر أمام لوحة
مرسومة معلقة على الحائط . لوحة صينية على ما أعتقد .

والرجل يتكلم بلغة عربية فصحى . إنه من القلائل الذين يفعلون ذلك
فى هذه الأيام . لغة سليمة ، سهلة ، واضحة ، وبسيطة .

وأسأل الباقورى من النقطة التى توقف عندها حديث ابنته . .

أقول : هل تختلف الطريقة التى تربيت بها عن الطريقة التى ربيت
بها أولادك .. ؟

ويضحك الرجل ويقول :

« طبعاً تختلف فى مجالات هامة . فأولا أنا نشأت فى بيئة غاية فىالفقر فكانت الحياة على غاية فى القسوة . وأنا نشأت نشأة فطرية . البقرة فى المنزل نسوقهافجر كل يوم إلى الحقل فى أيام بردها كثير وملابسها قليلة . ولكن أولادنا عاشوا حياة مترفة نسبيًّا لو قارنتها بخشونة حياتنا .

هذه نقطة . نقطة أخرى : أنا نشأت فى ظل نظام من التربية يقوم علىالضرب . أحياناً الضرب المبرح . وإذا ضربتنا آبائنا فأمهاتنا إلى جانبنا . . أما أولادى فقد تأثرنا فى نشأتهم بنظريات التربية الحديثة ومن ثم فهن لم يعرفن الضرب ، لا من أبيهم ولا من أمهم . .

نقطة ثالثة : علاقتى بأبى كانت علاقة خشية ورهبة . مثلا فى أسرتى — شأن معظم الأسر الريفية — لم نكن نجلس مع أبينا فى مجلس عام قط ، وإذا جلسنا نهرنا نهراً شديداً . ولكن لا شىء من هذا يسود فى علاقتى بأولادى . . إن أولادى ينظرون إلى أبيهم وأمهم نظرة صداقة وثقة . . إنهم أصدقاؤنا الصغار ، بأكثر مما هم أبناؤنا الصغار . .

نقطة رابعة : . . الزواج . فأنا تزوجت على الطريقة الريفية . فلم أر زوجتى مطلقاً قبل الزواج ، وفترة الخطبة لم تكن طويلة . وقد حدث بعض هذا مع بناتى عند زواجهن ، فصحيح أن رؤية البنت لم تكن ممنوعة تماماً على خطيبها قبل الزواج ولكنها عندما تحدث فبتوجيهى ومشورتى . لأن إطلاق الرؤية والغلو فيها أكثر خطراً من إهمالها ، ونستطيع أن نستخلص حدود الرؤية من آداب ديننا . . »

* * *

حسناً . . نعود إلى الدين .

إن الدكتور طه حسين سبق أن قال لى فى حديث سابق : « إن إنشاء كليات الطب والهندسة والمعاملات فى جامعة الأزهر هو اتجاه غير سليم . أدى إلى تطوير التعليم الأزهرى إلى أسوأ وليس إلى أحسن » . . .

وأسأل الباقورى الآن : ما رأيك ؟

والباقورى يرد : « إن فائدة وجود كليات الهندسة والطب والزراعة فى جامعة الأزهر يعرفها أستاذنا – أستاذنا بحق – الدكتور طه حسين . فهو يعلم قطعاً أن بعثات التبشير المسيحية قد نجحت فى أنحاء كثيرة من آسيا وأفريقيا بسبب ثقافة المبشرين . فالمبشر لم يعد لاهوتيا فقط . بمعنى أنه لم يعد رجلا متفرغاً لشئون الدين وحدها . وإنما إلى جانب درايته الدينية فهو خبير فى الطب أو الهندسة أو الزراعة مثلا .

فالحياة الروحية لم تعد منفصلة عن الحياة العلمية كما كان الناس يتصورون من قبل . والإسلام بالذات يمزج بين الحياة الروحية والحياة العلمية ولا يفصل بينهما . وحينما طورنا الأزهر فإن الدكتور طه حسين – كما بلغنى ذلك وقتها – كان من أول الذين أخذ رأيهم فى هذا التطور وأقروه ورحبوا به . وقد أنشأنا فى جامعة الأزهر كليات للطب والهندسة والزراعة والتجارة إلى جانب دراسات الأدب ، واللغة العربية ، والشريعة والسنة النبوية . وقد كان للتطوير هدفان : فأولا تحقيق مبادئ الفكر الإسلامى ذاته . فمن يدرس تاريخ الأمة الإسلامية يرى أن الطبيب كان عالماً بالكتاب والسنة مع أنه طبيب .. والرحالة كان عالماً بالكتاب والسنة

وهو رحالة ، والمؤرخ كان عالماً بالكتاب والسنة وهو مع ذلك مؤرخ . ونخذ مثلا على ذلك . إن الذى اكتشف البحيرات الأفريقية التى ينبع منها نهر النيل كان رجلا عربياً مسلماً ، كما كان ذكر الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) .

وسيجريد هونكه المستشرقة الألمانية لها كتاب بعنوان (شمس الله على الغرب) أو « أثر الحضارة العربية فى أوربا » تثبت فيه أن كل علماء الأمة العربية كانوا أطباء ومهندسين وصيادلة وفلكيين ورياضيين إلى جانب أنهم كانوا فقهاء فى كتاب الله وأئمة فيه .

والهدف الثانى لتطوير الأزهر هو إحياء ماضى الأمة العربية . فالأزهر بوصفه حامل رسالة الإسلام كان هو المكان المفضل لابن الهيثم . وبالمناسبة فإن ابن الهيثم هو أول من اخترع نظارة للقراءة. وكان يلقى دروساً منتظمة فى الأزهر .

قلت : وهل نجحت تجربة الجامعة الأزهرية حتى الآن ؟

أجاب الباقورى بحسم : نعم . إن لدى رسائل رسمية من مؤسسات كثيرة .. تشكر فيها جامعة الأزهر على المستوى الرفيع لخريجى كلية الإدارة والمعاملات مثلا . . وهى الدفعة التى تخرجت فى العام الماضى » .

والحديث يتوقف مؤقتاً . .

فالتليفون يدق . تليفون أحمر . ويرفع الباقورى السماعة ليجد على الطرف الآخر الدكتور حسن بغدادى مدير جامعة الإسكندرية .

وفى أثناء انشغال الباقورى مع حسن بغدادى أتذكر بحثاً لجورج

برنارد شو بعنوان « الإسلام بعد مائة سنة» ويقول فيه : إن الرجال المفكرين عندما يريدون فى المستقبل العاجل ديناً يحمى الفضيلة ويقى المجتمع ويكون سبباً للحياة السعيدة بين البشر . . فإنهم سيجدون أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يضمن لهم التقدم والنجاح . وأول البراهين على ذلك أن الإسلام لا يمنع أى تقدم سواء كان فى النهضة الفلسفية أو الكيماوية .

ويقول جورج سارتون فى كتابه (الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين) إن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية وإلى زعامة العالم السياسية والعلمية — كما كانوا من قبل — إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة فى الإسلام والعلوم التى حث الإسلام على الأخذ بها .

ويقول المستشرق سبنسر فاميرى : لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسماً عربيًّا ، ولا يستطيع عالم طبيعى أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درساً عربيًّا . ولا يستطيع أى طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم دون أن يهمس بآراء طبيب عربى .

ونعود إلى الحديث .

فالباقورى انتهى الآن من حديثه التليفونى . وذكرياتى توقفت .. والأسئلة أستأنفها .

— كيف ترى حياتك منذ أن أصبحت أحد رجال الدين فى مصر . ؟

ويقاطعنى الباقورى : ولكننى لست رجل دين ، فأنا لم أتخصص فى الدين ولكن فى اللغة العربية والأدب العربى .

قلت : طبعاً . . ولكنك تخرجت فى الأزهر . .

وهو يجيب : فعلا تخرجت فى الأزهر . والناس ينظرون إلى رجال الأزهر على أنهم رجال دين . وهذا خطأ يجب تصحيحه . إن رجل الدين واسطة بين الناس وربه . وهذا المفهوم لا يعرفه الإسلام . الإسلام يفرض على أتباعه أن يعملوا فى الدنيا من أجل الدين . وكل مسلم مسئول عن الإسلام ، ولا واسطة بين المسلم وبين الله . .

قلت : أنا لا أقصد واسطة . بل أقصد الرجل الذى تقتصر معلوماته على الشريعة الإسلامية . . ألا يعتبر رجل دين ؟ .

والباقورى يجيب : حتى فى هذه الحدود لا يوجد فى الإسلام رجل دين . . إنما توجد دراسات دينية . وكل الذى يمتاز به الدارس فى الأزهر مثلا هو حصوله على دراسات فنية يستخرج بها أحكاماً شرعية من كتاب الله وسنة رسوله . تستطيع إذن أن تسميه فنياً . . فنياً فى استخراج أحكام الدين من أصول الإسلام . .

قلت : حسناً . . هل ترى فى حياة الرجل الفنى فى أحكام الدين الإسلامى ما يميزها عن حياة الرجل العادى ؟

قلت السؤال رأنا أحس على وجه الباقورى علامات انفجار قادم فى الطريق . . وها هو ذا الانفجار فى شكل كلمات متدفقة من فم الباقورى : إيه يا أخى . . الدين يسر لا عسر . ثم . . كيف تتصور حياة رجل الشريعة ؟

قلت : أنا لا أتصور شيئاً . . أنا أسأل فقط ؟ !

قال متراجعاً: « دعنى أفسر لك الأمر . عندما اتصل الشرق الإسلامى بالغرب المسيحى أخذنا نحن المسلمين كلمة (رجل دين) من الحضارة الغربية وأطلقناها على أقرب الناس إلى الدين فى مجتمعنا وهم رجال الأزهر . وهذا مفهوم خاطئ . . إن تطوير الأزهر سيؤدى حتماً إلى تصحيح هذا المفهوم . ولكن لابد أن نتوقف نحن عن اعتبار شخص ما متفرغاً فى الدين.. وعن توقع شكل خاص لحياة هذا الشخص يميزه عن حياة باقى الناس » .

* * *

. . والكلام معقول !

إن كاتباً فرنسياً — هو رينيه ميليه — كان هو الذى قال فى سنة ١٩٠٨ إن الإسلام قضى على عادة التنسك واعتزال الدنيا .. وقرر على أتباعه الاشتغال بالدنيا والآخرة معاً . . فأعاد الدين إلى حالته الطبيعية .

والتليفون يعود إلى الرنين فى منزل الباقورى (كان الشرباصى هذه المرة) وبعد حديث قصير أعود لسؤال الباقورى :

— هل تشعر أنك ارتكبت أية أخطاء فى حياتك ؟

ويرد الرجل بكلمات أمينة : هنا ياسيدى لا أجدنى قادراً على أن أدفع عن نفسى حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول الرسول : كل بنى آدم خطاؤون . وخير الخطائين التوابون . . وأنا — ياسيد محمود — واحد من بنى آدم .

قلت : هل تشعر أنك ارتكبت أى تقصير فى حقوق أسرتك عليك ؟

مرة أخرى يجيب الرجل : « لقد حرمت طوال فترات كثيرة من

الاستمتاع بأسرتى ، كما حرمت هى من الاستمتاع بى . . وقد جنى هذا على ، أو فى الحقيقة جنته على ، بعض الوظائف العامة ، فعندما كنت وزيراً لم أكن أجد الوقت الكافى الذى تحتاجه منى أسرتى . هذا خطأ بغير شك ، والدرس هو أنه لا ينبغى لأى عمل مهما كان عظيماً أن يشغل رب الأسرة عن أسرته . فالأسرة التى لا خير لها فى عائلها .. لاخير لها فى وطنها . والمناصب العامة تجنى تماماً على أسر أصحاب هذه المناصب . والوظيفة بقدر ما تكون كبيرة بقدر ما تشغل صاحبها عن أسرته » .

* * *

قليل من المتعة !

والمتعة عند الباقورى هى القراءة . والكتاب الذى يقرأه الآن هو « مجمع البيان فى تفسير القرآن » . وهو هدية له من صديق عراقى . ويقول الباقورى عن الكتاب إنه « . . كتاب طيب خال من الخرافات التى يلجأ إليها كثيرون من مفسرى القرآن الكريم » .

والمتعة عند الباقورى تعنى أشياء أخرى بجانب القراءة. إنه مثلا يعجب بالموسيقى الهندية . ويحتفظ بعدد من أسطوانات الموسيقى الصينية التى كانت وصلته هدية . وهو يعجب بتمثيل سميحة أيوب ، وإن كان لم يدخل المسرح أو السينما منذ ١١ سنة . قبلها كان منتظماً فى مشاهدة مسرحيات الريحانى ، ثم فرقته بعد ذلك .

والمتعة ثالثاً تعنى السفر بالنسبة للباقورى . وهو قد زار بلاداً كثيرة إلى جانب البلاد العربية. زار الصين وأسبانيا والفيليبين والباكستان وإيطاليا

وهونج كونج والبرتغال و . . بلاداً أخرى كثيرة .

وأسأل الباقورى : ما هو البلد الذى استرحت إليه أكثر من غيره ؟

ويجيب : فى الواقع لكل بلد ميزة . ولكن نفسى استراحت راحة تامة إلى مدريد عاصمة إسبانيا . ولعل راحة نفسى هذه ترجع إلى إحساسى بأنى أعيش فى بلد لا تزال النفحات العربية تعطر أجواءه .

قلت : كيف رأيت الناس يعيشون فى مدريد ؟

قال متذكراً : فى مدريد يعيش الناس فى ولاء شديد — كمسيحيين — للمذهب الكاثوليكى . وإن كانوا فى الحقيقة لا ينسون فضل العرب عليهم ، بل إنهم لا يملون الحديث — بمناسبة وبغير مناسبة — عن آثار الحضارة العربية فى طول بلادهم وعرضها . وفى مدريد كنت أحس أنى أعيش فى عاصمة عربية . فهم ينامون القيلولة ويسهرون الليل . وهم يبدأون عشاءهم من العاشرة مساء ويباشرون عملهم بعد العاشرة صباحاً . فكأنهم يؤمنون بقول العربى القديم : نومة الضحى مبردة فى الصيف ، مسخنة فى الشتاء .

. . والباقورى أزهرى .

وقد سبقه إلى أوربا أزهرى آخر . سبقه إلى وصف إحدى عواصم أوربا وهى باريس . إنه رفاعة الطهطاوى الذى ذهب إلى باريس منذ ١٤٧ سنة وسجل انطباعات عنها فى كتابه « تخليص الإبريز فى تخليص باريز » . إن الطهطاوى يصف باريس قائلا : « . . أعلم أن الباريزيين يختصون بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى العويصات . . ومن طباع الفرنساوية التطلع والتوسع بسائر الأشياء الجديدة

وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور خصوصاً فى أمر الملبس . ومن طباعهم المهارة والخفة . فإن صاحب المقام الرفيع قد تجده فى السكة كالصغير . ومن طباعهم أيضاً الطيش والتلون . فينتقل الإنسان من الفرح إلى الحزن وبالعكس ، حتى إن الإنسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة أمور متضادة . وهذا كله فى الأمور غير المهمة . أما الأمور المهمة فآراؤهم فى السياسة لا تتغير . . كل واحد منهم على مذهبه ورأيه يؤيده مدة عمره » .

و . . ولقد تطور الأزهر .

ولكنى أسأل الباقورى : من هى أبرز شخصية فى الفكر الإسلامى الحديث من وجهة نظرك ؟

ويرد الرجل : جمال الدين الأفغانى بغير شك . فالأفغانى — ومدرسته التى تضم الشيخ الإمام محمد عبده — هو أبرز شخصية إسلامية حاولت أن تجمع بين الدنيا والدين فى العصر الحديث .

والتليفون يدق مرة أخرى فى منزل الباقورى . لا أدرى من المتكلم هذه المرة . ولكنى أدرى أن جمال الدين الأفغانى هو الذى قال : لا جامعة لقوم لا لسان لهم. ولا لسان لقوم لا آداب لهم. ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم . ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيي آثار رجال تاريخهم . . فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم . .

ونحن قوم نحمل خلفنا تاريخاً طويلا . . ونحمل فى عقولنا أدباً غنياً . . ولنا فى ديننا عقيدة ثرية تكمل قرنها الرابع عشر هذه الأيام .

وأسأل الباقورى : ما هو موقف الإسلام من الحضارة الحديثة . .
أقصد من العلم الحديث ؟

وهو يرد : الإسلام فيما أعلم لا يضيق إطلاقاً بالعلم . ولكنه يضيق دائماً بكل ما يخرج عن إطار الإنسانية الشريفة . فإذا انتهى بنا العلم إلى الخروج عن هذا الإطار كان من واجبنا جميعاً — مسلمين وغير مسلمين — أن نضيق بهذا العلم .

وتساءلت : هل عندك أمثلة ؟

أجاب بسرعة : طبعاً . خذ مثلا العلم الحديث الذى تستخدمه أمريكا فى فيتنام . إن أى مسيحى أو مسلم لا يمكنه أن يوافق على ما يحدث فى فيتنام . خذ أيضاً قنابل النابالم التى حرقت بها إسرائيل معسكرات اللاجئين الفلسطينيين . إن هذا العلم — لا أقول إن الدين الإسلامى وحده يضيق به — بل أقول إن الدين المسيحى أيضاً يضيق به ويستنكره أشد الاستنكار .

. . وللمرة الرابعة : التليفون ؟

ولكن المكالمة ليست للباقورى . . إنها لزوجته . والباقورى قال منذ دقائق إنه لم ير زوجته قبل الزواج وهو أيضاً يقول إننا نشبه زماننا بأكثر مما نشبه آباءنا . لماذا لا نسأله إذن عن نظرته إلى المرأة فى هذا العصر ؟ فلنجرب . .

إن الباقورى يقول : إن الأساس الأصيل للحب هو تقارب وجهات النظر بين الرجل والمرأة . والمرأة لا يعجبها مطلقاً الرجل المخنث . فالمرأة

لا تبحث فى الرجل عن تكرار لنفسها : إنما هى تبحث عن شىء مختلف.

« الحب بعد الزواج أقوى وأخلد من الحب قبل الزواج . إن الحب الذى ينشأ قبل الزواج ليس حباً . إنه بالكثير شهوة حب وعلى قدر ما يكون الحب شهوة . . يكون بقاؤه شهوة . .

« الحب يزيد عن الإعجاب . والحب يخاطب فى الطرف الآخر رقته وذوقه وأخلاقه » .

« الحب الموفق عنصر من عناصر السعادة . . ولكنه ليس السعادة كلها . .

« السعادة فى رأيى هى نفس مطمئنة راضية تتنزل عليها السكينة . . ولقمة عيش تسد الجوعة ، وثوب يقيك حر الصيف وبرد الشتاء . . وزوجة تسكن إليها وتسكن إليك ، أما ما وراء ذلك فمن كماليات الحياة . . التى قد تكون جناية عليك بأكثر مما تكون سعادة لك . فكلما قلت مطالب الحياة بانت معالم السعادة فى جوانبها » .

* * *

والكلمات الأخيرة للباقورى تذكرنى بكلمات قالها فيلسوف — قديم. يقول جون ستيوارت مل : لقد تعلمت أن أحقق سعادتى بتقليل رغباتى . . أكثر مما أحققها بمحاولة لتحقيق رغباتى .

وتذكرنى أيضاً بمفهوم أم كلثوم للسعادة : السعادة نسبية دائماً ، وكل منا يبحث فى السعادة عن الجزء الذى يهمه .

. . وخرجت من منزل الباقورى سائراً على قدمى فى شوارع مصر الجديدة . . وفى الطريق رأيت أناساً كثيرين يسيرون معى . وتصورتهم

ذاهبين إلى سينما ، ولكننى اكتشفت أنهم ذاهبون إلى مسجد قريب لتأدية الصلاة .

يبدو أننا جميعًا نفعل الشيء نفسه فى هذه الأيام . نقدم اعتذاراً إلى الله .

* * *

رَجلٌ بنصفِ صَوت !



– أخبار اليوم . . عدد ١٠ أغسطس ١٩٦٨ .

معظم الناس يجذبك إليهم شهرتهم . اعتراف المجتمع الرسمي بهم . مقياس خاطئ . إن البرميل الفارغ له صوت أعلى من البرميل الملىء .

وبعض الناس يجذبك إليهم عدم شهرتهم . اختفاؤهم رسمياً . . خصوصاً لو كان هذا الاختفاء باختيارهم . لأن هذا معناه أنهم قاموا بعملية نفى اختيارية لأنفسهم بعيداً عن المجتمع . إن السبب بسيط : لقد أصبحوا بغير سلطة . فتصور . . كم لديهم من الفضيلة ؟!

هذا الرجل واحد من هؤلاء . لقد كان مديراً لجامعة عين شمس . وظيفة فى قمة السلطة العلمية فى بلدنا . ولكنه بكامل إرادته . استقال من هذه الوظيفة . السبب هو « أننى شعرت بأننى لست مديراً لجامعة . . بل مديراً للمستخدمين . هذا عمل لا يغرينى ولا أستطيعه . لهذا فضلت التفرغ لعملى الطبى . . وهوايتى الأدبية » .

هكذا – ببساطة شديدة – تحول الرجل من واحد ضمن ثلاثة مديرين للجامعات ، إلى واحد ضمن ٢٢ مليون مواطن . (أصبحوا الآن ٣٥ مليوناً) :

هذه أول نقطة يتناقض فيها الرجل مع القيم التى تحكم حياتنا العامة . إنه يرى حياتنا الفكرية بوضوح ، مع أن عينيه مختبئتان داخل بئرين من التجاعيد . يكتب بفصاحة . . مع أنه يتكلم بنصف صوت . أسلوبه صعب . . مع أن حديثه بسيط . عالم . . مع أن فى عقله

كثيراً من الأفكار الآيلة للسقوط . طبيب . . مع أنه حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب !

إلى هنا تنتهى التناقضات . إلى هنا أستطيع أن أقول إن الرجل يفضل أن يعيش بيننا بشروطه الخاصة . أقول هذا مؤقتا قبل أن أذهب إلى الدكتور محمد كامل حسين فى منزله بحلمية الزيتون بالقاهرة .

والطريق إلى منزل الدكتور محمد كامل حسين طويل .. معقد . منزل يقع فى أطراف القاهرة . وأحاول أن أتذكر مَنْ مِنْ أدبائنا القدامى كان يقيم هكذا — على حدود مجتمعنا القاهرى . آه . . المازنى . إبراهيم عبد القادر المازنى . كان — رحمه الله — يسكن داراً وسط مقابر الإمام الشافعى . ولكن محمد كامل حسين لم يصل بعد إلى مثل هذه الرغبة فى الانعزال عن المجتمع . فمنزله أصبح — الآن على الأقل — يقع وسط منطقة سكنية لا بأس بها . ولكن الطريق إلى منزله يبدأ ضيقاً ثم أكثر ضيقاً . . شارع . . ثم حارة . بعدها حارة أخرى ثم : فيلا أنيقة ضخمة .

يجب إذن أن تتوه — مثلى — فى الطريق إلى منزله لأول مرة . . يجب أيضاً أن تتوه فى الطريق إلى عقله لأول مرة .

* * *

أقول للدكتور محمد كامل حسين : لو بدأنا بالطب ، هل يمكن أن أسألك : من هو أقدم طبيب فى العالم ؟

أجاب الرجل : إن أقدم طبيب فى العالم كان مصرياً . هل

تتصور ذلك ؟ لقد عاش هذا الرجل منذ خمسة آلاف سنة . كان واحداً من العمال الذين اشتركوا فى بناء الأهرام . . إن عمله هذا ، مضافًا إليه موهبة التفكير السليم ودقة الملاحظة والذاكرة القوية — هو الذى أتاح له أن يكون خبيراً فى علاج حالات إصابة الرأس . . التى تحدث عن السقوط من فوق الهرم . وقد سجل على ورق البردى علاجه لإصابات الرأس . . ولم تكشتف هذه الرسالة . . إلا فى سنة ١٨٦٢ ، بواسطة أمريكى من علماء الآثار المصرية . والواقع أن كل من قرأ رسالة هذا العالم المصرى القديم ، لا يسعه إلا أن يعجب إعجابًا بالغًا بمنطقه العلمى ومعلوماته الطبية . ورسالته هى بلا شك أقدم رسالة علمية فى العالم .

قلت : وما فضل هذه الرسالة على تقدم الطب ؟

وهو يرد بزهو : هذه الرسالة . . رسالة فذة ، لأنها أول رسالة فى العالم . ولأنها أول رسالة فيها مصطلحات علمية تخفى على غير المختصين وهى فذة فى تبويبها . لقد وصف الطبيب المصرى القديم حالات إصابة الرأس مرتبة من قمة الرأس ، إلى الوجه : إلى الصدر ، إلى الرقبة ، ثم الترقوة والعضل .

ثم — بأسف هذه المرة — يواصل الدكتور محمد كامل حسين حديثه : إلا أن هذه الرسالة لم تؤد إلى تطور خاص فى الطب . لأن أية طريقة حديثة فى التفكير ، لا تنمو ولا تنتشر إلا إذا كانت الحياة الفكرية مهيئة لها . والحيــاة الفكرية لم تستعد لهذا النــوع من

التفكير العلمى حتى أوائل القرن السابع عشر – حين كتب « هارفى » رسالة عن الدورة الدموية ، وهى رسالة أستطيع أن أجد فيها ما يشبه أسلوب رسالة طبيبنا المصرى القديم . وفيما عدا ذلك . . فالواقع أن الفضل كله يرجع إلى اليونانيين القدماء فى بدء الدراسات المنظمة لعلم الطب على طريقتهم . .

قلت مقاطعاً : ولكنك تعتبر رسالة الطبيب المصرى القديم أكثر تمشياً مع التفكير العلمى .

أجاب : نعم : فلو قارنت بين طبيبنا المصرى فى عمله بإصابات الرأس ، وبين ما كتبه أبوقراط – وهو أب الطب اليونانى – بعد ذلك بنيف وألفى سنة . . لوجدت الفارق واضحاً . الفارق بين تفكيرين : التفكير التجريبى والتفكير المنطقى . الأول يعتمد على التجربة ومن ثم فهو التفكير العلمى . الثانى يعتمد على المنطق . ورسالة الطبيب المصرى هى خير نموذج للعقلية العلمية الحديثة التى تؤمن بالتجربة .

قلت لمحمد كامل حسين : هل تؤمن بالتفكير العلمى ؟

أجاب بسرعة : طبعاً .

قلت : إذن . . ماهو التفكير العلمى ؟

– إنه يعتمد على أن الأسباب لا بد أن تؤدى إلى نتيجة ، والنتائج لا بد أن يكون لها أسباب .

– . . مثلا ؟

ـ مثلا نأخذ مشكلة كالشحاذة . . هناك طريقتان للتفكير فى حل هذه المشكلة . الأولى تقول إنك يجب أن تصدر قانونًا بتحريم الشحاذة ومعاقبة الشحاذ بالسجن مثلا . . هذا أسلوب غير علمى لا يحل المشكلة .

أما التفكير العلمى فيرى أن الشحاذة مظهر من مظاهر البطالة . . يجب أولاً أن تبحث عن أسبابها ، وأن الشحات سيظل موجوداً طالما وجدت البطالة . فإذا عالجت السبب . . اختفت النتيجة .

ـ وأى الأسلوبين تؤمن به أنت ؟

ـ الأسلوب العلمى طبعًا !

* * *

. . . فعلا !

فالواقع أن حياة الدكتور محمد كامل حسين تطابق إجابته . حياة طويلة . لقد ولد بإحدى قرى محافظة المنوفية سنة ١٩٠١ ، وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة من القاهرة فى يناير ١٩٢٣ . بعدها أمضى سنتى الامتياز فى مستشفى قصر العينى . ثم . . بعثة إلى إنجلترا سنة ١٩٢٥ لمدة خمس سنوات . . من هنالك حصل على زمالة الجراحين الملكية ، وعلى ماجستير جراحة العظام من جامعة ليفربول . عاد إلى مصر سنة ١٩٣٠ عضواً فى هيئة التدريس بكلية الطب . أمضى تسع سنوات أستاذاً لكرسى جراحة العظام . ثم أصبح مديراً لجامعة عين شمس سنة ١٩٥٠ إلى أن استقال سنة ١٩٥٤ لكى يتفرغ لعلمه الطبى وهوايته الأدبية .

هوايته الأدبية ؟ . . هل قلت ذلك ؟ . . عفواً .

فلقد نسيت مؤقتاً أن الرجل أصبح عضواً بمجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٥٢ (يسمونه أحياناً مجمع الخالدين) . خمس سنوات ثم حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب سنة ١٩٥٧ عن قصته التاريخية (قرية ظالمة) . قصة ممتازة . أسلوب رائع .

وفى الحقيقة أن الدكتور محمد كامل حسين ليس أول رجل علم فى مصر يهوى الأدب . سبقه إلى ذلك كثيرون . أبرز هم مثلا الدكتور أحمد زكى . . الذى يعتبر أسلوبه – فى رأيى – أحلى أسلوب على الإطلاق قرأته لعالم عربى (على الأقل قبل أن يذهب إلى الكويت) . هناك أيضاً إبراهيم ناجى الطبيب الذى هوى الشعر وتغنى له أم كلثوم إحدى قصائده (الأطلال) . . هناك أيضاً على محمود طه . . المهندس الذى تحول هو الآخر إلى الشعر .

وأسأل الآن الدكتور محمد كامل حسين : كيف التقى الطب والأدب عندك ؟

وهو يجيب : الطب صناعتى والأدب هوايتى .

– أيهما استفاد من الآخر فيك : الطبيب . . أم الأديب ؟

– الأديب ياسيدى . فإيمانى بالتفكير العلمى جعلنى أطبقه فى أعمالى الأدبية .

قلت : ولكن الأدب ليس علماً .

أجاب : نعم . . هو ليس علماً . ولكن هذا لا يمنع من تناوله علمياً .

قلت : لنترك الطب مؤقتاً . . ونتكلم فى الأدب قليلا . لقد طبقت أسلوبك العلمى فى تحليلك لتاريخ الأدب العربى . . فهل وصلت إلى نتائج مختلفة ؟

أجاب : طبعاً . إننى أرى أن تراثنا الفكرى والأدبى من الضرورى لنا أن ندرسه . ولكن علينا ألا نحوله إلى إله نعبده . فالتراث القديم يجب أن ندرسه أولا باعتباره تراثاً ، وثانياً باعتباره قديماً .

سألته : من هى أكثر شخصيات الأدب العربى القديم التى تحترمها ؟

أجاب بغير تردد : شاعرنا الكبير أبو العــلاء المعرى . إنه أقوى رجال الأدب العربى شخصية ، وأعمقهم تفكيراً ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدهم ذكاء . لا أستثنى من ذلك أحداً . وهو يتميز بأنه فكر أولاً ثم كتب بعد ذلك . فقيمته هو أنه كان مفكراً .. فى عصر كان الجميع يكتبون بغير تفكير .

قلت : أنت تتفق فى ذلك كثيراً مع طه حسين .

أجاب : نعم .

قلت : وتختلف قليلا مع العقاد .

أجاب : نعم .

قلت : بالمناسبة .. عندما نشر لك كتاب (وحدة المعرفة) هاجمك

عباس محمود العقاد — رحمه الله — سنة ١٩٦٢ ، واتهمك باقتباس الكتاب عن صمويل ألكسندر — أحد الفلاسفة الإنجليز فى القرن التاسع عشر . . فما رأيك ؟

صمت الرجل قليلا ثم بدأ يجيب : من العجيب أن من يريد الرد على كتاب « صمويل ألكسندر» لا يجد غير كتابى « وحدة المعرفة » . إلى هـــذا الحد تتناقض أفكارى مع أفكار صمويل ألكسندر ؟! وعلى أى حال . . فلقد انتهت هذه المعركة وقتها إلى اقتناع الأستاذ الأستاذ العقاد بخطئه ؟

قاطعته قائلا : ولكن العقاد أعاد نشر رأيه هذا بعدها بسنتين فى الجزء الأول من كتابه « يوميات » . فهل هو تراجع عن رأيه فعلا ؟ أرجو أن تتذكر معى . .

أجاب الدكتور محمد كامل حسين : نعم . ولقد تقابلت مع العقاد بعد ذلك فى اجتماعات ومناسبات مختلفة . . . وكان الحديث وديًّا ولم يعد العقاد إلى فتح هذا الموضوع .

دقائق صمت ثم سألت الدكتور : من هى أكثر الشخصيات التى تحترمها فى الأدب العربى الحديث . . ولماذا ؟

أجاب الرجلُ بسرعة : الدكتور طه حسين . إنه — كأبى العلاء المعرى — مفكر قبل أن يكون أديبًا . على أن فضل طه حسين يتركز فى أنه هو الذى بدأ الدراسة الحديثة فى الأدب العربى . كما أنه أدخل أسلوباً جديداً فى النقد الأدبى .

* * *

. . . ولنغير الموضوع !

لقد كتب الدكتور كامل حسين مرة يقول : « . . قدر للأمة العربية أن تكون وسطاً فى أمور كثيرة . فبلادها وسط بين الشرق والغرب ، وحضارتها وسط بين القديم والحديث . . وقدر للطب أن يكون وسطاً بين العلوم » .

والواقع أن الدكتور محمد كامل حسين هو نفسه الذى قدر له أن يكون وسطاً فى أمور كثيرة . فإلى جانب تناقضات حياته التى أشرت إليها فى البداية، هناك أمور كثيرة وسط فى حياة الرجل . هذا تناقض جديد . فالرجل – عن الأدب أتكلم الآن – هو أكثر من هاو . . وأقل من محترف . والرجل يفضل أن يعيش فى نصف ضوء . . لا هو مجهول إطلاقاً . . ولا هو مشهور تماماً . والرجل يكتب فى مسائل كثيرة . . لا هو منقطع أبداً . . ولا هو منتظم دائماً . والمناقشة معه دائماً لها حدود . فلا هو هادئ جداً . . ولا هو عنيف كثيراً . بين بين كما ترى .

ولعل هذا كله أدى إلى النتيجة النهائية : أن الرجل لم يتورط بعد فى حياتنا الفكرية . إنه رجل بنصف صوت . فنحن نسمع صوته فى حياتنا الفكرية من وقت لآخر . ونحن نراه فى الضوء بين فترة وأخرى .

على أن هذا كله يختفى إذا انتقلنا إلى الجانب العملى فى حياة الرجل . . هنا نجده منتظماً جداً . هنا نجده عضواً فى هيئات عديدة : المجمع

العلمى المصرى ، المجلس الأعلى للعلوم ، المجلس الأعلى للجامعات ، جمعية جراحة العظام البريطانية ، أكاديمية الجراحة بفرنسا ، جمعية الجراحة الدولية ، جمعية جراحة العظام الدولية .

ثم إن الرجل كان رئيساً للمجمع العلمى المصرى سنتين (٥٣/١٩٥٤) . . . وهو رئيس لجمعية جراحة العظام المصرية منذ سنة ١٩٤٩ حتى الآن . وهم يعتبرونه الأب الشرعى لطب العظام فى مصر .

أقول للدكتور محمد كامل حسين : أنت بحثت تاريخ الطب عند العرب بالتفصيل، ولك فى هذا الموضوع بحوث قيمة . فهل تستطيع أن تحدد لى بالضبط . . فضل الطب العربى على الإنسانية ؟ وهل كان الطب العربى ناقلا عن اليونان كما يقول البعض . . أو كان خالقاً كما تقول أنت ؟

وكأنما الرجل كان ينتظر هذا السؤال فعلا بعد حديث طويل فى الأدب ، ومن ثم فلقد أجاب فوراً : مبدئياً أنبه إلى أن الابتكار كلمة جديدة .. ولم تكن هى المثل الأعلى للعلماء فى العصور القديمة ، والابتكار اليوم مطلوب فى كل الجامعات ، لكنه فى العصور القديمة كان يعتبر بدعة وجهلا . سبب ذلك يرجع إلى أسلوب التفكير القديم . لهذا كان حتماً أن يكون التصور العـــام للطب العربى مشابهاً تماماً للطب اليونانى ، كان حتماً أن يكون البناءان متشابهين ، ولكنهما مع ذلك مختلفان فى التفاصيل ، ولكل منهما مشاهداته الخاصة . فالبحث فى التفاصيل من حيث المقارنة بين ما نقل العرب وما ابتكروا يكون بحثاً عقيماً . فالعرب أقاموا طبهم على النظام العام اليونانى ، وأخذوا نظرياتهم

العامة عن اليونان . . ثم تفقهوا فى هذا العلم وأصبح طبيعة لهم . . ونما بين أيديهم نمواً طبيعياً مستقلا إلى أن استعد الذهن البشرى للتغير التام الذى تم فى أوربا . ومثل الذين يقولون إن الطب العربى نقل عن الطب اليونانى دون ابتكار ، كمثل من يقول إن الطفل يصبح رجلا دون ابتكار . كل ذلك نمو طبيعى لم يكن منه بد . والطب العربى هو عهد من عهود نمو التفكير العلمى العالمى .

قلت : من أبرز الأطباء العرب القدامى فى رأيك ؟

— الرازى :

— وما الفارق بينه و بين ابن سينا ؟

— الفارق أن الرازى طبيب فيلسوف . أما ابن سينا فهو فيلسوف طبيب .

* * *

. . . والدكتور معه الحق فى وجهة نظره !

ولكنى أضيف إليها أن كتب الرازى وابن سينا فى الطب ظلت هى المرجع الأساسى فى معظم جامعات أوربا حتى أوائل القرن السابع عشر . . . وإلى مطلع العصر الحديث كانت أوربا تنقل ما وصل إليه الطب العربى . لقد ترجموا كتاب القانون لابن سينا (القرن الثانى عشر) ، وترجموا كتاب الحاوى للرازى (القرن الثالث عشر) وترجموا كتب ابن الهيثم (القرن الحادى عشر) . على أن المسألة ليست مبارزة بيننا وبين

الحضارة الغربية . . فهذا كله مجرد تاريخ . . يضيف ميزة لصالح أجـــدادنا ولا يضيفها لحسابنا نحن . ومن ثم فمن الأفضل أن نعود بسرعة إلى حياتنا المعاصرة .

أقول للدكتور محمد كامل حسين : ما أهم عمل طبي أنجزته في حياتك ؟

— إنشاء مستشفى الهلال الأحمر بالقاهرة (١٩٣٧) .

— ما هو مقياس نجاح الطبيب ؟

— سمعته عند مرضاه .

— ما أهم خطأ ارتكبته فى حياتك ؟

— أننى ولدت أصلا !

— ما هو أول هدف كنت تسعى إليه ؟

— أن أكون صادقاً مع نفسى .

— هل كنت فى مطلع شبابك مختلفاً مع المجتمع فى شيء من معتقداته ؟

— أحياناً . فمثلا نظرة المجتمع إلى بعض المسائل على أنها حقائق مطلقة ، واختياره لكثير من المسلمات التى جعلها فوق النقد . كل هذا كنت أدعو ضده لأنه ليس تفكيراً علمياً .

قلت : قرأت لك بحوثاً كثيرة عن الشعراء العرب القدامى . . فلماذا لم تمتد دراستك إلى الشعر الحديث والمعاصر ؟

أجاب : لم — ولن — أقرأ شيئاً من الشعر الحديث .

قلت : هذا موقف غير علمي ياسيدى !

أجاب : أنا لست محترفًا . أنا هاو فقط .

قلت : هذا صحيح . ولكنك فى الواقع تريد أن تأكل كعكتك وتحتفظ بها فى الوقت نفسه .

أجاب : لو كنت محترفًا لوجب على متابعة كل الاتجاهات المعاصرة ولكنى لست كذلك .

* * *

إلى هنا أتوقف !

أنفاسى تقطّعت ، صوتى اختنى وأسئلتى أصبحت تخرج بطيئة . . بطيئة . . بطيئة . والحل ؟ الحل أن نترك الرجل يعبر هو عن أفكاره . . بغير تنظيم . . ولا ترتيب .

يقول الدكتور محمد كامل حسين : « . . . السعادة ليست كلمة مجردة . إنها ذاتية دائمًا . العالم سعيد بعلمه . . اللص سعيد بإجرامه .

« . . . لا تسألنى عن السبب فى عدم زواجى حتى الآن . ليس لدى تفسير أقدمه لك . وأفضل ألا نتحدث فى هذا الموضوع .

« إذا كان علمنا بالماضى ناقصًا حتمًا ، وإذا كانت قدرتنا على الإحاطة بأسباب الأحداث الماضية ناقصة حتمًا ، وإذا كان تصورنا للماضى يختلف باختلاف تفكير كل منا وسابق خبرته . . . فكيف يستطيع أحد أن يطمئن إلى صواب تقديره للمستقبل وهو لا يعرفه إلا قياسًا على معرفته بالماضى ، وهى ناقصة من غير شك . . .

« . . . حرية الفكر من الأمور التى لا تستطيع أية أمة أن تستعيض عنها بغيرها من الأمور . فالقوة والغنى والفتوحات لا تمنع الدولة من الانحطاط إذا لم يكن فيها القدر الكافى من حرية الفكر . بل إنه يشاهد فى التاريخ القديم أن زوال بعض الدول تم بعد فتوحات ضخمة ، لأن ذلك دفع القائمين بالأمور فيها إلى الاستبداد . . . وعند ذلك يبدأ الضعف المميت .

« . . آخر كتاب قرأته هو كتاب فلسفة التاريخ الذى كتبه هيجل. إنه من أسخف الكتب التى قرأتها . إن هيجل – وهو الفيلسوف الذى أثر بشكل ضخم على الفلسفة الأوربية خلال القرن الماضى – يستقى معلوماته عن الشرق من السياح الإنجليز . ومن ثم فلقد وقع فى أخطاء مضحكة .

« الفرق بيننا وبينكم – شباب هذه الأيام – هو أننا ، فى شبابنا ، كنا نبذل جهداً أكبر مما تبذلونه اليوم . إنى أرى الآن نسبة مرتفعة من الشباب يفضلون دائماً اختيار الطريق الأسهل والأقل مجهوداً » .

* * *

فعلا . ربما كانت السطور الأخيرة التى قالها محمد كامل حسين صادقة – وهى كذلك فعلا – ولكنها نصف الحقيقة . أما النصف الثانى الذى ينسونه دائماً فهو : لماذا نحن كذلك ؟

وفى الإجابة عن هذا السؤال يجب – مبدئياً – أن نتأمل حياتنا

فإذا فعلنـــا ذلك فسوف تصل بنا هذه الحقيقية إلى : أن أعظم لحظات الحياة فى مجتمعنا لا تأتى للذين ينتظرونها ، ولا للذين يستحقونها ، وإنما تأتى ــ فقط ــ للذين يتصادف وجودهم فى طريقها !

فلتفهموا الشباب . . قبل أن تطلقوا عنه الأشاعات !

الرجل الذى كان أبى!



— أخبار اليوم . عدد ٢٣ مارس سنة ١٩٦٨ .

اعتذار ضرورى

منذ ٨٢ سنة انتصرت دولة بروسيا انتصاراً حاسماً فى حربها ضد النمسا . ولكن بسمارك — الزعيم الألمانى — كان هو الذى علق على ذلك قائلا : نحن لم نكسب الحرب هـذه بفضل الجندى البروسى . . ولكنا كسبناها بفضل المدرس البروسى ! إلى هذا الحد تستطيع الأمة — أى أمة — أن تعتمد على مدرسيها فى انتصاراتها . . وفى هزائمها ! ! من هنا كان الاهتمام بالخطابات المنشورة على هذه الصفحة . إن صاحبها وصل فى حياته إلى منصب وكيل وزارة . ولكنه يعتز بأنه كان فى الأصل مدرساً ابتدائياً . . ربما يكون مخطئاً فى ذلك — ولكن هذا موضوع آخر ! والخطابات المنشورة هى رسائل خاصة تبادلها مع ابنه وابنته . فى الواقع هى خاصة جداً . ولكنى وعدت صاحبها بأن الخطابات لن يقرأها أحد سوى اثنين فقط . وما زلت عند وعدى . شخصان فقط سيقرآن هذه الخطابات الخاصة : أنا . . وأنت !!

(م ٤٠)

● من عمرو . . . إلى والده أحمد خاكى

« أبى . .

يؤسفنى أن أقول لك إنك لم تذكر لى الحقيقة فى أشياء كثيرة . لقد حدثتنى عن أشياء كثيرة تحدث فى مجتمع وهمى . . ولا تحدث فى مجتمعنا .

طلبت منى أن أبذل دائماً مجهوداً شاقًا فى الحياة . ولكن المجهود وحده لا يكفى . قلت لى إن التفوق شرط لتقدمى ونجاحى ، كما قلت لى إن الناس لا تحترم الانتهازى . ولا تحترم الغشاش . ولا تحترم من يأخذ كل شىء ولا يعطى شيئاً . وأخبرتنى بأن قيمة كل إنسان تتحدد بكمية المجهود الذى يبذله . وأخبرتنى بأن النفاق عملة مغشوشة لا يقبلها المجتمع . . وبأن الفضيلة تستطيع أن تحمى نفسها فى كل وقت . وبأن الحقيقة تستطيع أن تفرض نفسها على كل الأباطيل . . . وبأن العمل يطرد من طريقه كل الكسالى والانتهازيين .

ويظهر يا أبى أنك برغم وصولك لمنصب وكيل وزارة التربية والتعليم لم تنس أنك بدأت حياتك مدرساً بالمدارس الابتدائية . ولذلك فإنك مازلت تحدثنى بمنطق المدرس الذى لا يقبل من تلميذه أية مناقشة . ولكنى سأخبرك بما أراه . إنى أرى الناس من حولى نوعين : الذين يعملون . . والذين ينجحون . ولا تعايش بين الاثنين .

إنى آسف يا أبى ـــ فى الواقع آسف جداً ـــ حينما أقول لك : إنك حدثتنى عن كل مجتمع . . إلا مجتمعنا . أخبرتنى عن كل شىء . . إلا عن الحقيقة . لقد كذبت على يا أبى » .

ولدك المطيع : عمرو

● من أحمد خاكى . . إلى عمرو أحمد خاكى . شارع رقم ١١ ـــ المعادى ـــ القاهرة .

« ولدى العزيز عمرو . .

أنت ما زلت صغيراً يا بنى . ما زال عمرك ١٦ سنة . طالباً فى السنة الثانية الثانوية . ولست أدعى أن آرائى التى أقدمها لك هى الحق كله ، كما أنه ليس من حقك أن تفترض أن ما تراه هو الباطل كله .

وأحب أن ألفت نظرك فى البداية إلى شىء ربما تنساه : إننى الذى علمتك كيف تفكر . متى توافقنى ومتى تعترض على . فإذا انتقدتنى الآن فيما أقوله . . فتذكر أننى الذى شجعتك على هذا . كان هذا أسلوبى معك . . ومع أختك الكبرى سميرة ، ومع أختك الصغرى شهيرة ، بل هو ما زال أسلوبى . حتى مع بنت أختك هدى .

وأحب ثانياً أن ألفت نظرك لمسألة هامة للغاية : هناك دائماً حل وسط لكل مشكلة . ألم أقل لك ذلك من قبل ؟ حسناً . . دعنى أكرره لك من جديدوأضيف : أنك ترى فى مجتمعنا فجوة واسعة بين الأمل والعمل . بين القول والتطبيق . بين ما تسمعه وما تراه . طبعاً هذا خطأ . فى الواقع خطأ فاحش . إن الله تعالى يقول «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟»

وأنا أدرك أنك ممزق نفسياً . ولكننا جميعا كذلك . كل ما أريده منك ألا تفقد الأمل . فاليائسون لا يبنون أبداً مجتمعاً عظيماً . ونحن نريد لمجتمعنا أن يكون عظيماً يابنى .

وأنت تكتب لى فى خطابك أننى — كمدرس — لا أقبل مناقشة من تلميذى . لا يابنى . هذه صورة خاطئة تماماً لعمل المدرس. إن المدرس الحقيقى هو الذى يحمى تلميذه من تأثيره الشخصى

وأنا فى تربيتى لك لم أحرص مطلقاً على أن ألقنك الحقيقة. . بل حرصت على أن أدفعك أنت إلى اكتشافها بنفسك. ويظهر أنك الآن تعيب على أننى كنت مدرساً . إنك لم تقل ذلك صراحة فى خطابك ، ولكنى أحسسته .

حسناً . فلتعرف إذن أننى عملت مدرساً برغم أنفى . فعندما تخرجت فى المرحلة الثانوية سنة ١٩٢٥ ، كنت أستطيع أن أدخل كلية الحقوق ، أو كلية الآداب مثلا . ولكن رسم الدخول كان ثلاثين جنيهاً فى السنة لكلية الحقوق : وعشرين جنيهاً لكلية الآداب . هل تعرف قيمة الثلاثين جنيهاً فى تلك الأيام ؟ إنها تساوى مائة وخمسين جنيهاً على الأقل فى يومنا هذا .

ولقد كان أبى — الذى هو جدك أيضاً — فقيراً أشد الفقر . لم يكن مرتبه كله يكفى لدفع هذا المبلغ الباهظ . ولذلك فلم يكن هناك مفر من أن أدخل مدرسة المعلمين العليا . . وهى الوحيدة المجانية فى ذلك الوقت . بل إنها كانت تدفع جنيهين فى الشهر منحة للخمسة المتفوقين من الطلبة

الذين يلتحقون بها . جنيهين كاملين .. . تصور ؟ !

ولم أكن وحدى الذى أعانى من هذه المشكلة . فالفقر كان هو الشىء الوحيد الذى يؤمن بالديمقراطية فى مصر . ولتعلم أن كل المتفوقين فى تلك الأيام — كل الممتازين عقلياً ولكن المتخلفين مالياً — كانوا يضطرون إلى الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا . لقد تخرج فيها مثلا شفيق غربال والدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور أحمد زكى ، والدكتور محمد محمد عوض . . وغيرهم كثيرون .

وعندما تخرجت فى مدرسة المعلمين فى سنة ١٩٢٩ عينت مدرساً بمدرسة الأورمان الابتدائية بمرتب شهرى قدره خمسة عشر جنيهاً تقريباً وأقول تقريباً لأنهم كانوا يخصمون من المرتب أربعة قروش كاملة ضرائب . ويوم تسلمت هذا المرتب لأول مرة كدت أرقص وأنا أسير فى الشارع . لا ، آسف — فالرقص عيب ! ولكن الدنيا لم تكن تسعنى . إن خمسة عشر جنيهاً أيامها كانت تستطيع أن تشترى لك أربع بدل من القماش الفاخر أو تشترى ٥٠٠ كيلو لحم أو ١٥ ألف بيضة !

لكن ما علينا . . أريد أن أقول إنه كان هناك طبعاً سبب اقتصادى دفعنى لأن أكون مدرساً . ولكن السبب الأهم أنى كنت أحب مهنة التدريس نفسياً — لا — بل كنت أعشقها .. فالتدريس رسالة . والمدرس الحقيقى هو مصنع متنقل لإنتاج القيادات الجديدة والعقول الجديدة . والمدرس — فى أيامنا — كان يرى فى التدريس مهنة تستحق العبادة ، وليس مجرد الاحترام .. وكان المدرس قدوة حقيقية لطلبته . لقد حدثتنى

أنت مرة عن تلميذ زميل لك كان يغش فى امتحان . هل تعرف ماذا كان يحدث أيامنا ؟

مثلا فى سنة ١٩٢٣ دخل علينا الأستاذ محمد فريد أبو حديد . . ليراقب علينا فى امتحان النقل إلى السنة الثالثة الثانوية بمدرسة روض الفرج الثانوية — هل تعرف ماذا فعل؟ لقد أحضر كتاباً وأخذ كرسياً وذهب إلى ركن فى الفصل . . وانهمك فى القراءة إلى أن انتهى وقت الامتحان . ولكن أحداً منا — نحن التلاميذ — لم يحاول أن يهمس لزميله ، أو أن يسأله ، أو أن يأخذ منه ورقة أو يعطيه ورقة . تعرف ليه ؟ لأن هذه إهانة لنا جميعاً ، للفصل كله ، وللمدرس الذى أراد لنا أن نتعود الأمانة ، ونراقب أنفسنا بأنفسنا ، هكذا كنا نحس أيامها .

المهم . . أخشى أن يكون هذا الخطاب قد أصبح طويلا . دعنى أسألك عن أخبارك فى المدرسة . وما أخبار كتاب الكهرباء الذى كنت تقرؤه فى آخر مرة رأيتك فيها ؟ على العموم أنا لن أمكث طويلا فى الإسكندرية . فالمؤتمر الذى أحضره الآن لن يستمر فترة طويلة . وإلى أن أعود اكتب لى فى خطابك القادم عن كل شىء فى حياتك . . عن الكتب التى تقرؤها والدروس التى تذاكرها ، والأفلام التى تشاهدها . وختاماً ، سلامى لك ولماما وللجميع .

والدك : أحمد نجاكى

● من عمرو أحمد خاكي إلى أحمد خاكي ــ الإسكندرية .

« والدى العزيز . .

سلامى وتحياتى . . إلخ . . إلخ .

كتبت لك فى خطابى عن المدرسة فى أيامنا هذه . . فكتبت لى عن المدرسة فى سنة ١٩٢٣ . حدثتك عن المدرس الآن ، فحدثتنى عن المدرس سنة ١٩٢٩ . أنت لم ترد على يا أبى فى شىء مما كتبت لك عنه .

أما عن أفلام السينما فلم أشاهدها منذ ثلاثة أشهر ، المذاكرة أهم . إن مقرراتى المدرسية أصبحت لا تعطينى فرصة لأى شىء آخر فالامتحان على الأبواب وأريد أن أنجح فيه بتفوق .

أما عن كتاب الكهرباء الذى ذكرته فى خطابك فهو ليس مقرراً علينا . ولكنه من بين القراءات الحرة التى أهواها . وأنت تعرف أنى أحاول أن أقرأ الكتب العلمية فى وقت فراغى .

وبالمناسبة . . فإن مدرستنا تنوى القيام برحلة إلى أسوان قريباً . هذه الرحلة سوف أستفيد منها كثيراً ، لأننا سنزور السد العالى وسوف يشرحون لنا طريقة عمل محطات الكهرباء الجديدة هناك . سوف أطلب من ماما أن تدفع لى رسوم الرحلة إلى أن تعود أنت من الإسكندرية . إذا كنت توافق فتقبل تحياتى . . وتحيات الجميع هنا »

ولدك المطيع عمرو

● من أحمد خاكي إلى عمرو أحمد خاكي ــ شارع رقم : ١١ ــ المعادى ــ القاهرة .

« ولدى العزيز عمرو . .

اعذرنى يا بنى إذا كنت قد سرحت فى خطابى السابق إلى ذكريات الماضى ، إن الماضى يابنى هو عمرى . الماضى هو حياتى . ولن أعيش مثلما عشت . ولكنك – مثل شباب هذه الأيام – قليل الصبر ، قليل الحكمة ، قليل الوقت .

ولقد أردتنى أن أحدثك عن مهنة التدريس هذه الأيام . حسناً . اعلم يابنى أن المدرس الآن معذور بعض الشىء إذا كان يضيق بمهنته . إن التدريس أصبح الآن محطـة انتظار بالنسبة لنسبة كبرى من المدرسين انتظاراً لوظيفة أفضل . وهذه علامة سيئة بأكثر مما تتصور . فالتدريس كالحب . . لا ينجح إلا إذا كان عشقاً . التدريس مهنة تشترط أولاً الإيمان بها كرسالة فى الحياة . والمدرسة يا بنى – بغير المدرس والتلميذ – تبقى مجموعة حوائط صماء تنعى من بناها .

ولكن من ناحية أخرى تجد أن المدرس فى هذه الأيام معذور فى عدم إيمانه برسالته . إنه يجد أن التدريس مكانه فى القاع بالنسبة لجدول الأجور . ويجد حـوله نماذج كثيرة من الناس يبذلون جهداً أقل . . ويحصلون على عائد أكبر . ربما كان هذا سبباً لما نلاحظه الآن من أن معظم المدرسين يأخذون عملهم على أنه واجب ثقيل يستحق التخلص منه بأسرع ما يمكن . . وبأقل مجهود .

ولكن هناك أسباباً أخرى خاصة بالتدريس . منها مثلا أن المدرس هو جزء من المجتمع . وهو يرى المجتمع يركز كل جهوده واهتمامه على الواجهة . . على الشعار . . على الأقوال . هو يرى فجوة واسعة — فى

الحقيقة واسعة جداً – بين ما يقوله المجتمع وما ينفذه فعلا . بين ما يعلنه المجتمع وما يمارسه فعلا . وحينما يرى هو كل ذلك . . يتحول بدوره – مثلنا جميعاً – إلى شخص يقول مالا يفعل ، ويفعل مالايقوله . وحينئذ يصبح التلميذ مثلما قال عنه « فيكتور هوجو » المفكر الفرنسى يوماً : . . . يتمتع بالتفكير السليم . . بالرغم من التعليم !

حينئذ يصبح المدرس – مثلما يصبح أى شخص آخر – يعيش ليأكل . . . بدلا من أن يأكل ليعيش .

هناك أسباب أخرى كثيرة . خذ منها مثلا كثرة عدد الطلبة فى الفصل الواحد . لقد أصبح جهازنا التعليمى كله يؤمن بالعدد بدلا من النوع وأصبحت مناهجنا الدراسية مكتظة بمواد محشورة حشراً لا مبرر له . وأصبح الامتحان هو تجربة مرعبة يحلم بها التلميذ قبل موعدها مائة مرة . سبب آخر هو أن التدريس مهنة تتطلب خبرة . فهى – مثل أى فن آخر – يحتاج إلى موهبة . . وممارسة . . ومران . وأنت ترى أن الشاب يتخرج الآن فى الجامعة .. ثم يعين فوراً للتدريس لطلبة الثانوية العامة مثلا . إنها جرأة منقطعة النظير . ففى أيامنا مثلا . . كنا نتخرج فى مدرسة المعلمين العليا – التى أغلقت سنة ١٩٣٣ – دون أن نجرؤ على التدريس فى الثانوى قبل عدة سنوات من التدريس فى الابتدائى . كان الواحد منا يقضى السنوات المبكرة من عمله فى التمرين والتدريب على التدريس كمهنة وفن .

ولكن . . هأنذا أحكى لك من جديد عن الماضى . . أنا متأسف المهم . . بالنسبة لرحلتك إلى أسوان التى تفكر فيها . . قل لماذا إننى

موافق . وخذ منها النقود اللازمة للرحلة . اكتب لى بعد عودتك . والآن سـلامى لماما ولأختك سميرة وزوجها ، وقل لأختك شهيرة أننى عاتب عليها لأنها لا تكتب لى .

والدك : أحمد خاكى

● من شهيرة أحمد خاكى . . إلى أحمد خاكى . الإسكندرية .

« بابا . . .

إزى حضرتك . . لماذا تأخرت كثيراً ؟ هل المؤتمر الذى تحضره بالإسكندرية يشغلك عنا إلى هذا الحد ؟ أرجو أن تعود إلينا سريعاً . وأنا أكتب لك الآن بعد أن عدت مع ماما . إن ماما نزلت معايا . . واشترت لى حتة قماش . . إنما جنان . حاروح للخياطة بكره علشان تفصلها لى . وعندى حاجات كثيرة هاحكيها لك . . لما ترجع . . قبلات لك من الجميع .

شهيرة

● من أحمد خاكى إلى شهيرة أحمد خاكى . . شارع رقم ١١ ــ المعادى ــ القاهرة .

« ابنتى العزيزة شهيرة . .

قبـلاتى لك . ماذا تفعلين الآن فى دراستك . هل تذاكرين كثيراً كما هى العادة ؟ أرجو ذلك .

والآن أريد أن أنبهك إلى شىء هام : اوعى تفصلى الفستان الجديد فوق الركبة ! إنها موضة سيئة وغير أخلاقية . طبعاً إذا أعجبتك هذه

الموضة فإنني لن أمنعك من متابعتها . وأنت تعلمين أنني قد عودتك منذ الصغر أن تكوني حرة فى أفكارك الخاصة. تعرفى ليه ؟ لأن الحرية هى أن يفعل الإنسان ما يؤمن به. الحرية هى فيض من النفس .. لا فرض على النفس . وأنت تعلمين ذلك بالرغم من أن عمرك لم يصل بعد إلى ١٤ سنة ، وبالرغم من أنك مازلت فى السنة الثالثة الإعدادية .

ولكنى الآن أنصحك — وأنا لا أنصحك كثيراً — ألا ترتدى فساتين فوق الركبة . تعرفى على أيامنا . . مثلا . . كان الرجل تعجبه المرأة المتحجبة أكثر مما تعجبه المرأة السافرة . طبعًا هذه ليست دعوة للعودة إلى الحجاب ولكنها دعوة للأخلاق . مجتمعنا كان دائمًا مجتمعًا أخلاقيًا ومتديناً . . برغم ما ترينه من مظاهر مؤقتة هذه الأيام . هذه المظاهر المؤقتة كنت ترينها سببها اختفاء القدوة الصالحة .

فالبيئة يا ابنتى هى التى تحدد كل شىء .

المهم. . هل أنت ما تزالين تقرأين الرواية التى كنت تقرئينها قبل أن أسافر ؟ أنا أعلم طبعاً أنك تفضلين قراءة القصص والروايات . لا بأس بذلك الآن فى هذه المرحلة من عمرك. ولكننى أتمنى أن تتعمقى أكثر من ذلك فى القراءة .

أتعرفين أنى لما كنت فى سنك . . كنت قد انتهيت من قراءة أشياء كثيرة جداً. فالقراءة والمعرفة فيها شىء من الوراثة. وأنت تعلمين أن جدك — الذى هو أبى — كان مدرساً هو الآخر. وكان يحب القراءة ويكتب دواوين الشعر . وقد أحببت القراءة بفضله هو .

وقد لازمتنى عادة القراءة طوال حياتى . لازمتنى عندما عينت مدرساً لأول مرة سنة ١٩٢٩ بمدرسة الأورمان الابتدائية . وعندما سافرنا فى بعثة إلى إنجلترا سنة ١٩٣١ ، وعنـــدما عدت مدرساً للغة الإنجليزية فى الثانوى . هل تعلمين أننى كنت أول مصرى يشتغل بتدريس اللغة الإنجليزية فى المدارس المصرية ؟ فعلى حسب الموضة أيامنا كان الإنجليز محشورين فى كل نواحى حياتنا . فى التعليم وفى الرى وفى الزراعة وفى الإدارة وفى البوليس وفى القضاء وفى أشياء كثيرة أخرى غير الاحتلال العسكرى .

المهم أن عادة القراءة استمرت تصاحبنى بعد ذلك عندما عينت مدرساً بدار العلوم سنة ١٩٣٨ ، ثم عندما أصبحت مفتشاً للغة الإنجليزية بوزارة المعارف العمومية ، ثم بعد ذلك فى بور سعيد وأنا ناظر لمدرستها الثانوية ، وفى لندن عندما أصبحت وكيلا لمكتب البعثة المصرية هناك سنة ١٩٤٦ . وفى العراق وأنا ملحق ثقافى سنة ١٩٤٩ . وفى أمريكا وأنا مدير لمكتب البعثة المصرية هناك من سنة ١٩٥٠ . ثم من جديد فى القاهرة عندما عدت كبيراً لمفتشى اللغة الإنجليزية سنة ١٩٥٥ ، ثم مديراً لكلية فيكتوريا سنة ١٩٥٨ (التى أصبحت الآن كلية النصر بالمعادى) . و . . . باختصار . . ما زالت عندى هذه العادة إلى الآن وأنا وكيل لوزارة التربية .

لكن . . تعرفين أننى أحس أننى لم أقرأ بعد كل ما أريده . لقد شغلتنى الحياة عن قراءة أشياء كثيرة . أنا نادم على ذلك الآن . لكننى

سأبلغ سن الإحالة إلى المعاش بعد أسبوع واحد . . وساعتها سوف أتفرغ للقراءة .. وأتفرغ لك حتى لا تتهميني بأن عملي يشغلني عنك . سأتفرغ لك تماماً يا شهيرة وإلى أن يحـــدث لك ذلك . . لك وللجميع أطيب تحياتي .

والدك : أحمد خاكي

* * *

● من شهيرة أحمد خاكي إلى أحمد خاكي . . الإسكندرية .

« بابا . . . .

اطمئن على أنني لن أرتدي فساتين فوق الركبة . أنا مقتنعة بذلك . اطمئن أيضاً على أن الروايات ليست وحدها الشيء الذي أقرؤه . لقد بدأت أمس مثـــلا في قراءة الكتاب الذي ألفته أنت عن الكاتب المسرحي الإنجليزي برنارد شو . لكن . . تسمح لي أسألك سؤالاً : اشمعنى يعني برناردشو بالذات ألفت عنه كتاباً ؟ !

شهيرة

● من أحمد خاكي إلى شهيرة أحمد خاكي .

ابنتي العزيزة شهيرة . .

أنا ألفت كتباً كثيرة غير برناردشو . هل نسيت ؟ مثلا سنة ١٩٣٥ أخذت الجائزة الأولى عن بحث أعددته بعنوان « رسالة الأزهر في القرن العشرين » سنة ١٩٣٩ فزت في مسابقة أجراها الدكتور محمد حسين هيكل عن كتاب أسميته « روح القومية مقدمة للإصلاح الاجتماعي في

مصر » . . ومنذ سنوات قليلة ألفت كتاباً آخر بعنوان : فلسفة القومية .

لكن ما لفت نظرى فى برناردشو بالذات أشياء كثيرة . إنه كاتب مسرحى عملاق . وهو مفكر عبقرى . ولكنه أيضاً ناقد اجتماعى قدير . وهذا ما يهمنى أن تقرئى عنه فى أيامنا هذه بالذات . لقد وجد برناردشو نفسه يعيش فى مجتمع ينافق بعضه بعضاً . مجتمع فيه فجوة واسعة جداً بين القول والعمل . فكان على برناردشو — كما كان على كثير من أهل الفكر — أن يكتب عن هذا النفاق . عن الفجوة التى كانت تتسع سريعاً بين القول والفعل . وفى سبيل ذلك كان عليه أن يعادى أمة بأسرها من الأغنياء الذين نشأوا على الشره ، والاستئثار وحب المال والسلطة ، وأمة بأسرها من الكتاب الذين أيدوا هؤلاء بأقوالهم ، وكتاباتهم وقصصهم ومسرحياتهم .

وأول ما يلفت النظر فى برناردشو كناقد اجتماعى أنه كشف هذه الفجوات بين القول والعمل . بين نظريات السياسة وأساليبها . بين العقائد الدينية الأصيلة وبين ما يدعيه المتظاهرون بالتدين . بين التربية الصحيحة وما يقترفه المعلمون من آثام فى حق الطفولة . بين الأمانى التى تكمن فى النظريات الاقتصادية والنظم التى لا يمكن أن تحقق هذه الأمانى .

وقد جر هذا النقد على برناردشو كثيراً من الخصومات والعداوات بينه وبين فئات الناس التى كانت صاحبة مصلحة فى استمرار النفاق والانتهازية والوصولية .

إن برناردشو كان يرى مثلا أن الفقر هو أساس كل الشرور

والآلام فى العالم . كان يرى العالم أمامه ينقسم إلى طبقتين : طبقة تملك المال . . وطبقة أخرى فى حاجة إلى المال . . طبقة تملك السلطة . . وطبقة تعانى من السلطة . طبقة تعمل . . وطبقة تنجح .

وبرناردشو له مجالات أخرى كثيرة أبدع فيها . ولن يكفى هذا الخطاب حتى لاستعراض عناوينها . ولذلك أترك هذا الموضوع كله إلى حين عودتى إلى القاهرة وجلستى معك .

وختاماً لك وللجميع أطيب تحياتى . واسألى ماما حتى لاتنسى : هل دفعت فاتورة التليفون ؟

والدك : أحمد خاكى

● من شهيرة أحمد خاكى . الإسكندرية . .

« بابا . .

أخى عمرو سافر إلى أسوان فى رحلته التى كتب لك عنها فى أحد خطاباته . بنت أختى هدى تسلم عليك سلامات كثيرة .

وبعد — فقد قرأت كلامك عن برناردشو فى خطابك الأخير بشغف شديد . كنت مبسوطه جداً . لكن — أليس برناردشو هو أيضاً الذى قال مرة : إن التدريس مهنة من لا مهنة له ؟ ما رأيك فى هذا الكلام ؟ أرجو ألا تزعل منى . آه . . نسيت : ماما تقول إن فاتورة التليفون وصلت متأخرة كالعادة . . وفيها أخطاء كالعادة . . ولكنها دفعتها على أى حال .. بالرغم من أن التليفون نفسه عطلان منذ خمسة

أيام . . كالعادة أيضاً !

من عنـــدنا يهديك الجميع السلام . ويعـــدون لك مفاجأة فى عيـــد ميلادك . . هل نسيته ؟ عيد ميلادك الستين الذى يأتى بعد أيام قليلة ؟ نحن نرجو أن تعود إلينا قبله بمدة كافية .

مع سلامات كثيرة من : شهيرة

* * *

● من أحمد خاكى إلى شهيرة أحمد خاكى . شارع رقم ١١ ــ المعادى ــ القاهرة .

« ابنتى العزيزة شهيرة . .

سلامات وتحيات كثيرة وبعد . .

صحيح أن برناردشو قال إن التدريس هو مهنة من لا مهنة له . ولكن برناردشو كان دائماً ناقداً فكاهيًّا يبالغ فى نقده حتى يعبر عن رأيه . كان هذا رأيه فى مهنة التدريس بالشكل الذى وجدها عليه فعلا فى مجتمعه . أما التدريس كما يجب أن يكون فهو مهنة مقدسة . . بل هو أقدس مهنة على الإطلاق .

وربما تجدين حولك نماذج ينطبق عليها قول برناردشو . بالذات فى مجتمعنا . ولكن العيب فى هذه الحالة ليس عيبهم بقدر ما هو عيب النظام التعليمى الذى يعملون من خلاله .

تعرفين . . أننى أحس أحياناً أن وزارة التربية والتعليم عندنا هى مجرد إدارة كبيرة للمستخدمين ؟ ! . لا عمل لها إلا التنقلات والترقيات

وحساب مدد الخدمة إلخ .. طبعاً هذا ليس عيباً . لكن العيب أن يكون هذا على حساب المهام الأخرى للوزارة . فالمفروض أن تكون لدينا نظرية متكاملة للتعليم . والمفروض أن وزارة التربية والتعليم تشغل نفسها بالمناهج الفكرية فى التعليم .. وتطويرها لتلاحق التطور العالمى .. وتعرفين مثلا أنهم فى فرنسا عدلوا أسلوب تدريس مادة الرياضة مرتين بعد اختراع القنبلة الذرية . . وعندنا ما زالت الطريقة هى نفسها منـــذ سنة ١٩٢١ ؟

تعرفين مثلا أن الاتجاه العالمى يشدد الآن على ضرورة زيادة معرفة الطالب باللغات الأجنبية حتى يتعرف على الثقافات والحضارات الأخرى بينما عندنا أهملت اللغات الأجنبية إهمالا شديداً . لقد أصبحت هى مواد الرسوب التى يفضلها الطالب ! . يكفى أن تعلمى أنه منذ سنة ١٩٥٧ إلى الآن تخرج فى مدارسنا ١١ جيلا من الأميين تماماً بالنسبة للغات الأجنبية . يكفى أيضاً أن تعلمى أنه فى كل سنة يصل إلى وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ستمائة تقرير من المفتشين الأوائل . . ينبهون فيها إلى هـــذه المشكلة . . ولكن الله وحده يعلم أين تنتهى هذه التقارير ؟ !

لقد تخلفنا يا ابنتى تخلفاً شديداً فى مناهجنا التعليمية . ولا علاج لذلك إلا بثورة كاملة فى أجهزتنا التعليمية . . ثورة تحول الوزارة إلى جهاز فكرى قبل أن تكون جهازاً إدارياً . . ثورة تضاعف نسبة العمل اليدوى فى التعليم العام . ثورة تجعل مناهج التعليم أقل وأعمق . . بدلا مما هى أكثر .. وأتفه . ثورة لا تقيس الطالب بامتحان واحد فى السنة

أصبح كالكابوس عند كل طالب ، بل تقيسه بأعمال سنة كاملة . .

لكن . . على أى حال هذا موضوع طويل سوف نتناقش فيه كثيراً بعد ذلك عند عودتى إلى القاهرة . والآن سلامى لك وللجميع . . وبالذات سلامى للصغيرة هدى .

والدك : أحمد خاكى

● تلغراف :

من أحمد خاكى . إلى حرم أحمد خاكى :

أصل إلى القاهرة غداً فى ديزل الساعة الثامنة . سلامى للأولاد .

● من أحمد خاكى إلى عمرو أحمد خاكى . أسوان .

ولدى العزيز عمرو . .

ما أخبار رحلتك ؟ أرجو أن تقضى وقتاً ممتعاً فى أسوان مع زملائك فى الرحلة . أنا الآن فى انتظار عودتك يوم الأثنين . إن حياتى لم يعد فيها غير الانتظار . فمنذ أحلت إلى المعاش منذ ثلاثة أيام . . وأنا أجد حيـــاتى مليئة بفراغ كبير . لقد قضيت فى الوظيفة الحكومية ٣٨ سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام . . بالضبط ! وعلى مدى هذه السنوات الطويلة اكتسبت عادات لم أعد أستطيع أن أتخلص منها مثلا — كما تعلم — أننى أستيقظ يومياً فى الساعة السابعة صباحاً . تعرف أول يوم لى على المعاش حصل إيه ؟ صحيت من النوم تلقائيًّا فى الساعة السادسة صباحاً . . فى البداية لم يكن أمامى سوى أن أعيش فى الماضى .

ثم اكتشفت أن الحياة التى لا مستقبل لها . . هى موت وليست حياة . .

ولذلك قررت أن أشغل حيـاتى بشيئين : أولاً بالعودة إلى تأليف الكتب . . وستكون حياتى على المعاش هى فرصة جديدة لكى أبدأ حياتى من جديد .

والشيء الثانى هو أننى سأتفرغ لهدى . تلك الصغيرة الكتكوتة . . سأحاول أن أساعدها فى تعلم القراءة والكتابة .. فلقد اكتشفت أنها — مع أنها فى السنة الثالثة الابتدائية — لن تعرف القراءة والكتابة لو اعتمدت على المدرسة . ولكن هذا شيء آخر .

المهم . . أنا فى انتظارك يوم الاثنين . . وإلى ذلك الوقت . . لك تحياتى .

أحمد خاكى

● من عمرو أحمد خاكى إلى أحمد خاكى . شارع ١١ — المعادى القاهرة :

« أبى . . .

منذ مدة أريد أن أقول لك هذا الخبر : إنك لست أبى . لقد كنت أبى فعلا . ولكننى أحس الآن أنك أصبحت صديقى . كل المسألة أنك صديق أكبر سناً . . وخبرة .

تقبل تحياتى واحترامى وصداقتى .. إلخ . . إلخ . . إلخ . .

ولدك المطيع : عمرو

* * *

ملحوظة : سوف أعيد هذه الخطابات الآن إلى صاحبها : أحمد خاكي ــ وكيل وزارة التربية والتعليم سابقاً ــ والرجل المحال إلى المعـــاش حالياً .

ولكن .

هل كتبت هذه الخطابات حقاً ؟ !

الانسان كما يتصوره عالم



— مجلة آخر ساعة . . عدد أبريل سنة ١٩٧١ .

الإنسان ؟

هو مخلوق متزن ، بجسم يرتكز على قدمين تضمان ٢٨ مفصلاً ، بمولد كهربائى كيميائى . تكمله خزانات معزولة من الطاقة . . فى بطاريات حاشدة ، بموتورات ملحقة . جسم يضم ٦٢ ألف ميل من الشعيرات ، وملايين من إشارات المرور والإنذار . جسم يحتوى على شبكة سكك حديدية وناقلات وروافع (حيث الذراعان فى الجسم يضمان ٢٣ مفصلا ومحطات تشحيم ذاتية ، وشبكة تليفونات لا تحتاج إلى صيانة لمدة سبعين سنة إذا أحسن استخدامها) . إن هذا التركيب المعقد وغير العادى لجسم الإنسان يعمل كله بدقة بديعة من خلال برج يضم آلات ، تلسكوبية وميكروسكوبية وملحق به أيضاً شبكة لتسجيل المعلومات والأحداث السابقة ، وأجهزة لتحليل أطياف الأشعة و . . . و . . . »

وكنت أتوقع مثل هذه الإجابة من رجل العلم الدكتور أحمد زكى ، إجابة علمية . إجـابة دقيقة . . سهلة . . تشرح ما فى داخل جسم الإنسان من معجزات . إجابة ترى الإنسان باعتباره مجموعة حقائق . . ممتعة نعم . . ولكنها ما زالت حقائق . إجابة تكشف عن دقة العالم ، مع أنها تكشف أيضاً عن افتقاده للخيال .

ولكن الدكتور أحمد زكى لم يقل لى هذه الإجابة !

إنه لم يقلها . . مع أننى اتوقعتها . إن السبب فى ذلك بسيط .

فالإنسان بالنسبة لأحمد زكي ليس مجرد جسم يؤدى مجموعة من الوظائف، ولكنه – أكثر من ذلك – عقل يعي ما يراه . . ويفهم ما يحدث أمامه . . ويستخلص منه الدروس ، فلا يقع في المصيدة مرتين .

الإنسان عند أحمد زكي هو أولا مخلوق عاقل . . مع أننا نرى قلة العقل حولنا في كل مكان !

الإنسان عند أحمد زكي مخلوق عاقل . . من غير أن يعني هذا أنه دائماً مخلوق حكيم . إن ما حدث بالضبط هو – في رأى أحمد زكي – أن الحكمة . . وتخلفت في الإنسان على حين تقدم عقله . ولا بد للحكمة أن تسبق . . حتى يتخلص الإنسان من شر العلم والتكنولوجيا وينعم بالخير وحده » .

– هل في العلم شر ؟

– « لا . . العلم والتكنولوجيا ، كلاهما ليس فيه خير أصلا ، وليس فيه الشر . إنهما كمشرط الجراح . . يستطيع أن يفتك به ، أو أن يجرح ليشفى . أو هما كالماء ، تستطيع أن تبل به الظمأ . . وتستطيع أن تسد به الأنفاس وتغرق » .

مبدئياً : هناك كلمة واحدة في الإجابة السابقة لم أكتبها كما نطق بها أحمد زكي . كلمة : التكنولوجيا .

إن أحمد زكي لا يقولها كذلك . يقول : التكنية . ربما كان هذا اللفظ أكثر دقة لغوياً ، ولكن كلمة التكنولوجيا أكثر انتشاراً . أنا مع الانتشار وضد أحمد زكي .

ملاحظة ثانية : إن الرجل فى مناقشته معى يستخدم أسلوباً تتصارع فيه الدقة مع الخيال . إن أحمد زكى هو — بحكم تعليمه — رجل علم ولكنه أيضاً — بحكم ثقافته واهتماماته — رجـــل أدب . إنه — حتى — يرأس تحرير واحدة من أكبر المجلات الشهرية فى العالم العربى . إنه، بعد أن وصل فى مصر إلى أرقى منصب علمى . . وهو مدير جامعة القاهرة . . سافر إلى الكويت ليصبح هنـــاك رئيساً لتحرير مجلة «العربى». ربما يكون هذا تناقضاً . ربما لا يكون. سوف نرى على أية حال.

إن المهم الآن هو أن نجلس مع أحمد زكى نفسه . رجل طويل القامة ، معتدل القوام ، عميق الصوت ، دقيق الكلمات ، واسع الثقافة ، متعدد الاهتمامات . لقد دخل إلى حجرة الاستقبال فى منزله بالكويت ، ملقياً بتحيته فى هدوء وشىء من الخجل يخفى به كثيراً من العلم . ولكن خجل أحمد زكى لا يستطيع أن يخفى أيضاً القوة الضخمة لشخصيته . إن شخصيته تجعلك متنبهاً فوراً إلى القوة واللياقة الظاهرة من بعيد فى قوامه الطويل ، حتى وهو فى عمره الحالى — ٧٧ سنة . إنها قوة واضحة فى وجهه ، ومؤثرة تماماً فى لهجته . . كما توحى لك كتابته بالضبط .

ومع ذلك فإن القوة السحرية التى يتمتع بها لا تبدو فى حجمها الطبيعى إلا عندما يتكلم. إن أحمد زكى يتحدث بمثل التتابع الذى تسمعه من حبات مسبحة . إن كلماته تسير فى خط مرسوم ، وعقـــل يفحص الطيب من الخبيث ، والسلبى من الإيجابى . وحينما يسرح فى إجاباته فإنه يكون فى أحسن حالاته . إن حديثه حينئذ يصبح نوعاً من مشرط

الجراح الذى تحدث عنه هو نفسه منذ دقيقة . . وأحياناً ــ خلال بحثه عن كلمة أو عن صورة لفظية ــ فإنه يغلق عينيه ويسرح هناك . أين تكون « هناك » هذه . . لا أحد يعلم بالضبط . كل ما أعلمه الآن أننى أجلس معه فى منزله بضاحية « الصلينجات » فى الكويت ، والتى تبعد ثلاثة عشر كيلومتراً عن قلب الكويت العاصمة نفسها. ضاحية صغيرة بنيت كل منازلها على الطراز الإنجليزى القديم . لهذا أجد الآن هدوءاً حولى فى كل مكان ، مع أن كلمات أحمد زكى نفسها تسحب منى تماماً كل الهدوء . إنه أحياناً يكرر أفكاره ــ بكلمات مختلفة طبعاً مليئة بالمترادفات ــ ولكنها أيضاً مشحونة بالانفعالات المعدنية . وحينما أنفعل أنا الآخر بحكم العدوى من أحمد زكى ، فإننى أجد أفكاره عميقة وساخنة كما لو كان قد تم استخراجها حالا من وسط بركان متفجر فى داخله . بركان لا أحد يراه أو يحس به غير الرجل نفسه ــ أحمد زكى ــ ربما من أجل هذا بالذات ذهبت لمقابلة أحمد زكى فى الكويت .

لم يكن فى الكويت ما يشدنى إليها ، ولا حتى ما يجعلنى أفكر فى الهبوط بها وأنا عائد من الشرق الأقصى إلى القاهرة . لا شىء يشدنى إلى الكويت أو يجعلنى حريصاً على النزول فيها بالطائرة . لا شىء ولا أحد ، غير أحمد زكى نفسه ، الذى كنت أقرأ له فى صباى مقالاته المثيرة فى بعض الصحف المصرية اليومية . مقالات كانت كلها تقوم بمهمة التعارف بينهما وبين القرن العشرين . مقالات علمية تتناول أسرار الكون الفسيح حولنا فى بساطة ومتعة وجاذبية . مقالات تتعانق فيها رقة الأديب مع

دقة العالم . فى الواقع ، أن أحمد زكى واحد من كبار العلماء الذين أنجبتهم مصر . مع ذلك فهو فى النهاية واحـــد من كبار المثقفين الذين رفضتهم مصر فى إحدى نزواتها .

أقول لأحمد زكى : أنت فى القاهرة عضو بالمجمع اللغوى ، وأنت فى الكويت رئيس لتحرير مجلة شهرية ، وأنت فى جميع الأحوال تقرأ فى الأدب وتكتب فى العلم بأسلوب من الأدب . ما الذى يشدك هكذا إلى الأدب ؟

والرجل يقول : إن من مسئولية رجل العلم أن يعرف الناس بالقيم العلمية . . ويحيي فيهم سعيهم نحو القيم العلمية . إن الناس دائماً تهاب العلم ، لأن هناك إشاعة منتشرة تقول إن العلم صعب ، وإن العلم موهبة توجد عند بعض الناس ولا توجد عند البعض الآخر . هذا غير صحيح . إننا جميعاً نبدأ حياتنا من نقطة متساوية ، ولكن أتجاهاتنا تتحدد على الطريق وليس من نقطة البداية نفسها . ولأن الناس تتصور أن العلم صعب ، فإنك تجد أن الذين يقبلون على كتابة الشعر أو القصة مثلا هم أضعاف من يقبلون على التخصص العلمى . إن الطريقة المثلى لتقريب العلم للجمهور هى أن يتحدث الناس علمياً فى الأمـــور التى تتصل بحياتنا اليومية . فكلما قرأ الشخص العادى عن الدور الذى يؤديه له العلم داخل منزله . ، وفى مكتبه ، وفى حياته عموماً ، فإن أهتمامه بالعلم وقراءاته سوف تتزايد قطعاً .

ــ إذن ما هى المشكلة ؟

ــ المشكلة هى أن انتشار الكتابات العلمية التى تخاطب الناس العاديين

تواجهها صعوبتان . . صعوبة فيمن يكتب ، وصعوبة فيمن يقرأ. فبالنسبة لمن يكتب نجد أن أكثر أهل العلم يعزفون عن الكتابة بسبب تصورهم السابق أن الناس لا تحب القراءات العلمية . وبالنسبة للقارئ نجد أن كثيرين من القراء لم ينالوا من مبادئ العلم الأولية ما يكفى لمتابعة الجديد فى العلم . إن العالم الذى يكتب للناس لا يستطيع فى كل مرة يكتب فيها أن يبدأ موضوعه من ألف باء . هذا مستحيل ، حتى علمياً . فالمفروض إذن أن يكون القارئ قد نال على الأقل المقدار الذى تعطيه المدارس الثانوية من التعليم . وبغير هذا فإن من يكتب فى العلم لن يجد من يقرأ له ، ومن يقرأ فى العلم لن يجد من يكتب له .

ـ هل تعتقد أن هذا هو الحل الكامل لمشكلة تعريف الناس بالعلم فى وسائل الإعلام الشعبية ؟

ـ لا . فحتى لو تحقق هذا ، فإن العالم الذى يكتب للناس سوف تواجهه بعد ذلك مشكلة المصطلحات العلمية ، التى لا بد أن ترد فى كتاباته وهى مصطلحات لن يفهمها غير المتخصصين . فى هذه الحالة لا بد للعالم أن يدور حول هذه المصطلحات . وحتى إن جنح فى سبيل ذلك إلى اللغة العامية التى يفهمها الناس ، فإن هذا يكون أكثر يسراً .

قلت : ألا تتفق معى فى أنه ليس كل من هو عالم يستطيع أن يكتب للناس . ؟

ـ نعم .

ـ إذن هناك تناقض . فالعلم هو بطبيعته تخصص يضيق شيئاً فشيئاً .

أما مخاطبة الناس فتحتاج إلى ثقافة متسعة أكثر فأكثر . .

ـ « أنا رأيي أن العلم المفرط فى تخصصه لا ينتج عالماً إنسانياً . إن شأن مثل هذا العلم . . هو كشأن الخراط أو النجار مثلا . . الذى يحسن الخراطة والنجارة إحساناً كاملا لا يجاريه فى ذلك أحد . ولكنه إذا ترك هذا المجال لم يكن بعد ذلك شيئاً . إنما العلم الذى أعتبره علماً . . هو ذلك الذى لا يؤدى بمن يتخصص فيه إلى العزوف عن سائر أبواب المعرفة . إنه العلم الذى يجعل من الرجل إنساناً ، وهو الذى يجعل له من الحياة معنى ، ويجعل له فى الدنيا فلسفة .

* * *

إن هذه الكلمات من أحمد زكى ربما تتفق مع كلمات أخرى سابقة قالها « ألكسندر فيلمنج » ، مكتشف البنسلين ، حينما قال : « هناك أناس كثيرون يتصورون أن الطلاب الدراسين فى الطب يجب أن يتفرغوا للطب وألا يلعبوا مثلا . أنا لا أوافق . إذا لم تكن لطالب الطب ألعاب وهوايات أخرى ، وإذا كان يقضى كل وقته فى قراءة المراجع الطبية فقط ، فإنه ربما يعرف كتبه أحسن من الرجل المجاور له . أقول ربما ، لأنه ليس من المؤكد أبداً أنه سيعرف كتبه أحسن . إن من المحتمل أنه سيكون أكثر معرفة بما هو مكتوب فى الكتب ولكن ليس أكثر معرفة بمعنى ما يقرأ . إن على رجل الطب أن يعرف الناس وأن يعرف الطبيعة الإنسانية » .

إن « فيلمنج » ذكر هذه الكلمات عن رجل الطب ، ولكنها فى الواقع تنطبق على كل رجل . . فالعلم لا قيمة له إذا لم يخاطب فى النهاية

الطبيعة الإنسانية ، والمعرفة العلمية تظل دائماً ناقصة إلى أن تركز على معرفة إنسانية أوسـع وأعرض وأكثر شمولا وتنوعاً . إن العـلم هو التخصص ، والثقافة هى التنوع . . وما لم يكن المزيج قائماً فى عقل رجل العلم .. فإنه سوف يظل دائماً معزولا عن الدنيا والناس. ولكن أحمد زكى ليس معزولا .لا عن الناس ولا عن المعرفة، ولا عن التنوع ، ولا عن الثقافة . فى الواقع إن الرجل منذ لحظة ولادته الأولى فى مدينة السويس وهو يبنى لنفسه قاعدة عريضة ومتنوعة من المعرفة .

لقد جاء أحمد زكى إلى الدنيا منذ ٧٧ سنة من أسرة يعمل فيها أبوه واحداً من موظفى وزارة المالية . أب رأسه تحمل العمامة على حين عقله يجيد اللغة الفرنسية .

وشب أحمـد زكى ليجد نفسه تلميذاً بالكتاب فى السويس ، ثم تلميذاً فى الابتدائى والثانوى بالقاهرة . من الثانوى التحق بمدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١١ لكى يدرس فى قسمها العلمى ويتخرج منها بعد أربع سنوات. الآن أصبح أحمد أفندى زكى حاصل على شهادة عليا . الآن أصبح يرتدى الطربوش فوق رأسه ، والبدلة فوق جسمه والمنشة فى يده ، على عادة الطبقة المتوسطة فى تلك الأيام . الآن أصبح أيضاً مدرساً بمدرسة السعيدية ، بمرتب مضمون آخر الشهر ، ووظيفة ثابتة فى الحكومة .

ولكن المدرس الجديد أصبح فى الشارع بعد شهر واحد ، حينما قررت الحكومة إلغاء التعيينات التى تمت ، كجزء من التقشف الذى ترتب على قيام الحرب العالمية الأولى . ولحسن الحظ لم تكن الحكومة فى

ذلك الوقت هى صاحب العمل الوحيد فى مصر.. . وإلا لما استطاع أحمد زكى بعدها أن يعمل بالمدارس الحرة ، مدرساً فى البداية ، ثم ، ناظراً بعد ذلك . ناظراً لمدرسة ثانوية ألمانية بالقاهرة كان يملكها والد يوسف وهبي واسمها مدرسة وادى النيل . إن أحمد زكى أصبح ناظراً لتلك المدرسة الثانوية وعمره أربع وعشرون سنة . يبدو أن الشباب وقتها كان ميزة لك ، وليس عبئاً عليك ، كما هى الحال فى هذه الأيام !

ما علينا !

أصبح بطلنا الشاب إذن واحداً من الذين يشكلون العقول فى المجتمع وهو فى تلك السن المبكرة . ومع ذلك فإن طموحه كان أكبر من مركزه . إن الطموح هو شيء يزرعه المجتمع فيك — أو يسحبه من عقلك — فى سن مبكرة .. وحينما يعطى المجتمع فرصاً واسعة لأبنائه فى شبابهم ، فإنه يوقد فيهم إلى الأبد شعلة الطموح التى لن تخبو أبداً .

هكذا أنتهى طموح أحمد زكى إلى ترك الوظيفة — مع إغرائها — والسفر إلى الخارج للمضى فى طريقه العلمى . إن « الخارج » فى تلك الأيام كان معناها لندن . الدنيا كلها كانت فى تلك الأيام تبدأ من لندن العلم والثقافة والحضارة والتقاليد — والاستعمار أيضاً — كلها تبدأ من لندن . إن لندن ، فى تلك الفترة التى سافر إليها أحمد زكى فى شبابه ، كانت هى ذلك الخليط المدهش من أحسن الأشياء وأسوئها على الإطلاق .

ولم يكن أحمد زكى مسافراً للحصول على أسوأ الأشياء ، ولكن على أحسنها . لقد التحق على نفقته بجامعة « ناتنجهام » متخصصاً فى الكيمياء

وحينما عثر لنفسه أخيراً على مكان فى جامعة لندن ، التحق بها ثم التحق أيضاً بجامعة ليفربول . من هنا حصل على الدكتوراه فى الكيمياء العضوية سنة ١٩٣٤ .

الآن يستطيع أن يتزوج .. فتزوج ، ويستطيع أن يعمل .. فعمل . الزوجة كانت إنجليزية ، والعمل كان باحثاً فى جامعة مانشستر . .

إنه يتذكر تلك الفترة فيقول : « كان معى مفتاح لباب جامعة مانشستر حتى أحضر أو أنصرف وقتما أشاء . ومع ذلك كنت أظل فى أبحاثى إلى ما بعد منتصف الليل . فحينما يكون العمل هو هوايتك . . يصبح الرقيب عليك موجوداً فى داخلك ، وليس فى أى مكان آخر . »

وخلال السنوات الأربع التالية ، كان أحمد زكى قد واصل عمله وأبحاثه ودراسته أيضاً — فى إنجلترا أولاً ثم فى النمسا بعد ذلك — إلى أن حصل من جديد على الدكتوراه لثانى مرة من جامعة لندن . هذه المرة كانت الدكتوراه فى العلوم البحتة . شهادة كان أحمد زكى واحداً من أول اثنين من الشرق الأوسط يحصلان عليها . الثانى كان المرحوم الدكتور مشرفة.

الآن انتهت رحلة أحمد زكى مع الشهادات العلمية ، وبدأت رحلته فى الواقع العلمى . مرحلة بدأت بعودته إلى القاهرة لكى يعمل أستاذاً مساعداً لكلية العلوم فى جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًّا) .

قلت لأحمد زكى : ها أنت ذا أخيراً أصبحت أستاذاً مساعداً فى الجامعة .. وهو شىء كنت تطمح إليه من البداية .. فهل سار كل شىء معك على ما يرام ؟

ويرد الرجل ضاحكاً ، عائداً بذاكرته إلى الخلف أربعين سنة : نعم . فالأستاذية فى الجامعة هى منصب علمى مقدس ، وهى أرقى أنواع العمل العلمى .. لأنه عمل ينعكس على جيل جديد أنت مسئول عنه بين يديك . ولقد كان هذا هو إحساسى طوال عملى بكلية العلوم أستاذاً مساعداً ، فأستاذاً ، فوكيلا للكلية ، فعميداً .

قاطعته قائلا : أصبحت عميداً إذن ؟

رد أحمد زكى : لا ، ليس بهذه السهولة التى توحى بها الكلمة .

ـ لماذا ؟

هنا بدأت الابتسامة تتراجع ببطء من على وجه أحمد زكى ليحل محلها قليلا قليلا شيء من التجهم . فى البداية تجهم .. سرعان ما تحول إلى انفعال يوحى بذكريات سيئة يريد الرجل أن يسقطها من الحساب .

قال أحمد زكى : لقد انتخبنى الأساتذة بالإجماع عميداً للكلية ـ فالعمادة وقتها كانت تتم بالانتخاب . ولكن مصطفى النحاس باشا ـ يرحمه الله ـ رفض اعتماد القرار بوصفه رئيساً للوزراء .

قلت مستغرباً : لماذا ؟

رد أحمد زكى بحرارة وأسف : لم أكن وحدى الذى رفضته الحكومة ؛ كان معى أيضاً الدكتور السنهورى الذى رفضوا الموافقة على تعيينه عميداً لكلية الحقوق .

ـ وكيف سارت الأحداث بعد ذلك ؟

ـ أزمة .. طبعاً حدثت أزمة سياسية . كانت المشكلة هى أننى لست

رجلاً سياسياً ، بمعنى أننى لا أنتمى للحزب الحاكم وقتها ، وهو حزب الوفد . إن السلطة الحاكمة هى دائماً — إذا لم يردعها وعى الأمة — تريد رجالا تابعين لها .. حتى فى المناصب العلمية . لقد أثارت المعارضة أزمة فى البرلمان . ولم يرد النحاس باشا وقتها بأكثر من ثلاث كلمات . لقد صعد إلى منصة البرلمان وقال « القانون يعطينا الحق » . . قالها ، ثم نزل ، وهذا كل شيء . ولكن وزير المعارف وقتها — أحمد زكى العرابى — أصر على ضرورة تعيينى فى منصب العمادة حتى ولو لمدة شهرين . . احتراماً لقرار أساتذة الكلية . لقد أصر الوزير على موقفه .. وأصر رئيس الوزارة هو الآخر ..

قلت : هل كان الوزير ورئيس الوزراء هم كل أطراف الأزمة ؟

رد أحمد زكى — هذه المرة يصاحب كلماته اعتداد ملحوظ بالنفس : أبداً أبداً .. إن طه حسين دخل هو الآخر طرفاً جديداً ، لكى ينتصر للحرية الجامعية . لقد قابل مكرم عبيد باشا الذى كان وزيراً وزعيماً كبيراً فى حزب الوفد ، وقال له : « ماذا فعلتم يا باشا فى موضوع أحمد زكى ؟ » . ورد عليه مكرم عبيد مستنكراً : « أحمد زكى مين ؟ » ، هنا رد عليه طه حسين قائلا : « يا أخى .. إذا كنتم لا تعرفون أقدار الناس وقيمتهم ، فهذا جهل لا يصح الافتخار به » . فى الحق أن هذا كان موقفاً لطه حسين لا أنساه .

قلت : ولكن أزمتك لم تحل بعد . .

قال : نعم . ولكن بعد أن تدخل طه حسين . . بدأ مكرم عبيد يفكر

فى إصلاح الموقف. وأخيراً اتصل بى طه حسين وأخبرنى أن المدير الإنجليزى لمصلحة الكيمياء انتهت مدة خدمته ، وأن مكرم عبيد يقترح تعيينى فى مكانه ، وأن الوظيفة — هذه كلمات مكرم عبيد — مرتبها على أى حال أكبر من مرتب العميد . وسألنى طه حسين عن رأيى ، فقلت له إننى أوافق . .

قاطعت أحمد زكى : .. ولكنك لم تعمل مديراً لمصلحة الكيمياء فى تلك الظروف . . .

— لا . . لم يحدث . لقد عاد مكرم عبيد إلى الاتصال بطه حسين بعد أسبوع وقال له إن الظروف تغيرت ، وإنه يعدنى بوظيفة أخرى بالمرتب نفسه . وحينما أخبرنى طه حسين بهذه المكالمة قلت له : لن أقبل أى وظيفة أخرى حتى ولو بأضعاف المرتب . إن المسألة لم تعد مسألة مرتب ، ولكنها أصبحت مسألة مبدأ .

هكذا تعقدت الأزمة من جديد .

— وكيف انتهت ؟

— انتهت بعد أسبوعين . لقد انتهت بمكالمة جديدة من طه حسين قال لى فيها : « يا سيدى المشكلة تم حلها . لقد تقرر تعيينك فعلا مديراً لمصلحة الكيمياء بمرتب ١٢٠٠ جنيه فى السنة » .

عدت لمقاطعة أحمد زكى مستغرباً : ما سر هذا التغيير ؟ لقد تغير الموقف من الموافقة إلى الرفض إلى الموافقة من جديد فى خلال ثلاثة أسابيع فقط . .

رد أحمـــد زكى بكثير – كثير كثير – من المرارة : « هذا السر لم أعرفه إلا بعدها بأربع سنوات . إن المستشار الإنجليزى لوزير المالية المصرى هو الذى رفض فى البداية تعيينى مديراً لمصلحة الكيمياء . أنت تعلم أنه كان يوجد لكل وزارة فى تلك الفترة مستشار إنجليزى يمثل السلطة الفعلية .. أما الوزير فمجرد « طرطور » . وعندما اعترض المستشار على تعيينى فى البداية .. لم يستطع وزير المالية أن يفعل شيئاً . ثم حدث بعد ذلك أن ذهب العميد السابق لكلية العلوم – العميد الذى كنت سأخلفه فى الكلية – لزيارة المستشار الإنجليزى . وفى تلك المقابلة سأله المستشار : « ما رأيك فى أحمد زكى » . . لقد سأله لسببين : أولا لأنه كان عميداً سابقاً للكلية التى كنت أنا وكيلا لها ، وثانياً لأنه – لأن العميد السابق – إنجليزى أيضاً ! لحظتها رد عليه العميد الإنجليزى السابق : « إننى لو أتيح لى أن أختار رئيساً لى من بين العلماء المصريين ، فلن أختار غير أحمد زكى ! » بهذه الكلمات سحب المستشار الإنجليزى اعتراضه ، وصدر قرار تعيينى من وزير المالية . هكذا يا سيدى كان الوزراء المصريون فى تلك الفترة ، مجرد : طراطير ! »

* * *

مع هذه الكلمات الأخيرة من أحمد زكى كان صوته قد تهدج وأصبح مشحوناً بكمية لا نهاية لها من الأسف والحزن. لقد تهدج صوته ، وتعثرت كلماته ، ودمعت عيناه . نعم . سقطت الدمعة مستترة من عينيه . دمعة على السياسة المصرية التى كانت تتشدق أمام الناس فى تلك الفترة بوطنيتها ولكن أقدامها ويديها

مشدودة إلى الأرض بسلاسل لا نهاية لها . إن الدمية هى التى كانت تتحرك أمام الناس على المسرح ، ولكنها الواقع كانت فى مشدودة بخيط تحركه السلطة الفعلية من خلف الستار. إن السلطة فى مصر كانت دائما مع من يملك فى يده البندقية . الإنجليز وقتها كانوا يحملون البنـدقية ، أما السياسيون المصريون ، فهم الرصاص الذى كان ينطلق من تلك البندقية . إن الرصاصة لا تحدد هدفها ، ولا تختار مسارها . إنها تنطلق إلى حيث يوجهها من يضغط على الزناد .

وفى تلك الأزمة التى عاشها أحمد زكى فى صدر حياته العلمية ، لم يجد من يقف معه سوى طه حسين . إن هذا كان طبيعياً للغاية ، لأن طه حسين نفسه كان أحد ضحايا السياسيين فى تلك الفترة . إن طه حسين أديب ، وأحمد زكى عالم ، وكلاهما ـ الأدب والعلم ـ كان دائماً من الضحايا المبكرة للسلطة السياسية فى مصر . إن الأدب هو فى النهاية تفكير ، والعلم هو أسلوب فى التفكير . أما السياسة .. فكانت دائماً مجرد سلطة معدومة التفكير والأسلوب . لهذا أخرجت السلطة طه حسين من الجامعة . وأخرجت بعده أيضاً أحمد زكى. لهذا كان طبيعياً أن تتضامن الضحية السابقة مع الضحية اللاحقة . إنه تضامن وتحالف بين الأدب والعلم ضد السياسة ، ضد السلطة ، ضد البندقية . صدام خرج منه العلم شبه منتصر ، مع أنه لم ينتصر .

وأسأل أحمد زكى : هل الحرية ضرورية للعلم ضد السياسة ؟

وهو يرد : نعم . الحرية ضرورية للعلم ، من غير سياسة .

ـ لماذا هى ضرورية ؟

ـ لأنه لا علم بلا حرية ، ولا تقدم بغير مجتمع علمى .

ـ ما هو المجتمع العلمى .

ـ هو مجتمع يؤمن بالحقائق قبل الأشخاص . مجتمع يتقدم بناء على خطة مدروسة ، وليس بناء على نزوات فردية . مجتمع تصبح الحقيقة فيه أكبر حجماً من العاطفة ، والكفاءة قيد فوق المجاملة ، والسلطة تخدم قبل أن تحكم .

ـ بعض الناس يقولون إن المجتمع العلمى هو مجتمع مادى ..

ـ هؤلاء قوم من أهل المشرق . قوم من بيننا يفكرون مثل الثعلب الذى نظر إلى العنب ، فوجده عالياً لا ينال ، فقال : إنه الحصرم المر .. وذهب راغباً عنه . إنهم إذن يقولون ذلك عجزاً وقصر ذيل . فلنصبح أولاً مجتمعاً علمياً قبل أن نلعن غيرنا ..

ـ ما هو العلم ؟

ـ هو المعرفة . .

ـ وما هى التكنولوجيا ؟

ـ هى تطبيق المعرفة .

ـ مثلا ؟

مثلا ، الغاية الواحـــدة فى العلم هى المعرفة التى لا غاية لها غير تصور الدنيا ، فهى لا تهدف إلى نفع الإنسان فى ملبس أو مسكن أو مطعم . أما التكنولوجيا فهى ما يخرج من هذا العلم البحت من تطبيق ، مما ينفع الناس فى عيشهم .

– هل يمكن أن يتقدم العلم بالحظ؟

– لا . .

– ولو غيرت السؤال : هل يؤمن العلم بالصدفة ؟

– لا يمكن . وحتى الاكتشافات العلمية التى تمت بالصدفة ، فإن الصدفة فيها ذهبت فقط للعقل المستعد لها .

* * *

تمام . .

فإذا كنا نقصد بالصدفة تلك الكلمة الغيبية المرادفة للحظ ، فإن العلم لا يؤمن بالحظ ولا بالصدفة . إذا كنا نقصد بالحظ والصدفة تلك القوة غير المنظورة التى تؤثر على الأحداث بشكل سحرى .. فإن أول خطوات التفكير العلمى هى أن نلغى هاتين الكلمتين تماماً . لا سحر فى العلم . لا سحر ولا حظ ولا غيبيات ولا ذهباً تسقطه لنا السماء ونحن جالسون القرفصاء . إن العلم هو تفكير ، وتجربة ، وتمييز ، وإدراك ، واختبار وفحص ، وملاحظة ، وترقب وانتباه . إن تاريخ الاكتشافات العلمية هو نفسه دليل واضح على ذلك . لقد تأخرت فى العلم اكتشافات كثيرة عن موعدها لأنها تمت فى البداية أمام عيون لم تنتبه إليها . إن إدوارد جينر لم يكن أول من يطعم الناس بجدرى البقر لكى يحميهم من مرض الجدرى . إن وليام هارفى لم يكن أول من يفترض وجود الدورة الدموية . إن داروين لم يكن أول من يتصور فكرة التطور . إن كولمبوس لم يكن أول أوربى يذهب إلى أمريكا ، وباستير لم يكن أول من يقدم نظرية الجراثيم فى

المرض ، وليستر لم يكن أول من يستخدم حامض الفنيك كمطهر . إن هؤلاء الرجال لم يكونوا الأوائل ، ولكنهم كانوا أول من تنبه ، وأول من نمى الأفكار التى اكتشفوها ، وفرضوها بعد ذلك على مجتمعات لا تريدها .

إن شيئاً من هذا القبيل يدور فى رأسى وأنا جالس فى منزل أحمد زكى بالكويت أشاركه المناقشة مع صديق مصرى آخر كلينا يتقاسم الاستمتاع بجلسة الرجل ومناقشته وتاريخه منير لسنوات طويلة سابقة ، وأنا لدقائق قليلة تالية إن طائرتى سوف تقلع بعد ساعة مع أن شخصية أحمد زكى تحتاج فى تحليلها إلى ألف ساعة . إن الرجل يبدو أمامى حصيلة أخيرة لقوى عديدة تتنازعه . . دون أن تحسم المعركة بعد . حتى فى سن السابعة والسبعين ، ما زال الصراع مستمراً داخل شخصيته . لقد ولد أحمد زكى فى السويس — مدينة تطغى عليها التجارة ، وعاش حياته فى القاهرة — مدينة تطغى عليها السياسة . لقد بدأ ثقافته من أسفل السلم : الكتاب . وانتهى بها إلى أعلى درجات السلم : جامعات إنجلترا . لقد بدأ تعليمه بالقرآن الكريم . وانتهى تعليمه إلى تكون خلايا الحياة . لقد تخصص — قبل غيره — فى فروع علمية معقدة ، مع أنه — أحسن من غيره — استطاع أن يكتب للناس عن العلم ببساطة . إن البساطة هنا هى بساطة فى المنطق والتفكير والأسلوب والمناقشة والكتابة . ومع أن أسلوبه منذ سفره إلى الكويت قبل أكثر من ١٢ سنة — أصبحت فيه ملامح الصحراء التى تحيط بنا الآن فى منزله ، إلا أنه فى الحقيقة ما زال من أكثر الأساليب جمالا ورونقاً . إنه — بأسلوبه هذا — يقول :

« أشقى ما يشقى به الناس فى أممهم وبين ذويهم ، هو الخضوع . الخضوع الذى يصبح عادة . الخضوع الذى يأتى عقب الأمر ، مهما كان هذا الأمر ، كما يدق الجرس على الفور وراء ضغط الزر واتصال التيار .

« . . الغريزتان الكبريان فى حياة الإنسان هما : الطعام والجنس . لا هناءة لإنسان إلا بالطعام . ولا هناءة للإنسان البالغ ، ذكراً كان أو أنثى ، إلا بالجنس . إنها شرعة الحياة ، وهى شرعة الله . .

« . . على الإنسان العاقل أن يفهم الغاية من غرائزه ، وأن يبذل لها بمقدار ما يصل بها إلى غايتها . . فإذا زاد فعليه وزر ذلك . .

« . . إنى إذا أعطيتك سكيناً ، لكى تقطع بها رغيفاً هو بين يديك ما أن تقف فى المرآة ، وترفع السكين إلى عنقك ، وتذبح بها نفسك . أفهذا ما كان للسكين بغاية .

« . . إن الحياة بدأت على هذه الأرض بسيطة ثم تعقدت ، والبساطة القديمة لم تكن تعنى السعادة حتماً . كان الناس قلة ، وكانت حاجات العيش قليلة ، وأبوابها على الأغلب مفتوحة . وكان النهب والسلب ، وحتى القتل فى سبيل العيش . ويدفن المقتول ، وتعود الشمس تطلع كأن لم يجد شىء وتعود الحياة إلى بساطتها . .

« . . ثم كثرت الناس وتجمعوا ، وتجمهروا . . فكانت القرى ، وكانت المدن وكانت أمم وشعوب . وكان لابد من حكم ، فكانت حكومات وشقى الناس بالحكومات ، وشقيت الحكومات بالناس ، حتى صاح صائح بالحرية ، وصاح بالديمقراطية ، فانقلبت الأوضاع ، وانعكست العلائق » .

أقول لأحمد زكي : ما هى الحرية ؟

– لا توجد حرية !

– كيف ؟

– أن الحرية التى يتكلم عنها معظم الناس غير موجودة . الحرية المجردة غيرة موجودة . نحن نقول مثلا إن الحق لا يعلى عليه ، ولكن هذا ليس موجوداً إلا فى الجنة .

– إذن ما هو الموجود فى عالمنا ؟

– الموجود هو حرية نسبية . إن إنساناً خيالياً مثل روبنسون كروزو . . هو الوحيد الذى يستطيع أن يعيش بحرية ، لأنه إنسان يعيش بمفرده على جزيرة منعزلة . إن أحداً لن يلومه فيما يتخذ من قرارات . ولكن الناس لا تعيش فى جزيرة . نحن نعيش فى مجتمع . فى المجتمع يريد كل إنسان أن يكون حرًّا . هذا مستحيل . ولأنه مستحيل فلابد أن يحدث تصادم بين الأفراد ، ولا بد أن توضع ضوابط للحرية . . حدود للحرية .

– ولكن الحرية بمجرد أن نضع عليها حدوداً . . فإنها لا تصبح حرية . تصبح أى شىء آخر . .

– وما العيب فى هذا ؟

– العيب هو أن هذه الحدود نفسها يمكن أن تكون مقدمة للديكتاتورية .

– لا . فطالما يوجد قانون ، وما دامت قواعد القانون هى الفاصل

بين إنسان وإنسان ، بين شعب وحكومة ، فلن تكون هنـــاك ديكتاتورية . .

– يا سيدى ، لقد عاشت الديكاتوريات دائمًا ، حتى باسم الدفاع عن الحرية !

– هذا صحيح ، ولكن الديكتاتوريات أخفقت فى العالم كله . الديكتاتوريات أخفقت ، وكذلك الديمقراطيات المتطرفة .

– لماذا تخفق الديكتاتورية فى رأيك ؟

– لأنها لا تسمح للناس بالتفكير خشية أن يرى الناس غير ما تراه الحكومة . إن هذا شيء ضد الطبيعة الإنسانية . فحتى الأديان السماوية فيها حرية . . .

– فلنغير الموضوع ، ولأسألك هذه المرة : هل ترى علاقة ما بين العلم والسياسة ؟

– طبعًا . السياسة نفسها أصبحت هى الأخرى علمًا من العلوم . إن السياسة ليست علمًا بمعنى وجود قوانين لها مثل الفلك والطبيعة مثلا ، ولكنها علم بمعنى أنها أصبحت تعتمد على الأسلوب العلمى والحساب العلمى والتفكير العلمى . فالسياسى أصبح عليه أن يكون مجرداً أولاً ، ثم عارفًا بالحقائق دون أن يتأثر بالعلاقات الخاصة السائدة ، كالعلاقة بحزب ضد حزب أو دين ضد دين مثلا . إنما أصبح على السياسى أن ينظر إلى المسائل دائمًا باعتبار أن الناس أمامه تسيرهم أشياء أكثر من القوانين . فمن دراسة الناس زائد دراسة ظروفهم . . يستطيع السياسى أن

يخرج بمجموعة قوانين غير عاطفية تحدد سلوكه . لهذا أصبحت السياسة تعتمد الآن على علوم النفس والاجتماع ، بالإضافة إلى دراسة ظروف الناس . من الحصيلة النهائية يستطيع الإنسان أن يكتشف القوانين التي تسير الناس . إن اكتشاف هذه القوانين هو علم السياسة .

– يا دكتور أحمد . . كيف شغلت أنت من قبل منصباً سياسياً ، وهو الوزارة ؟

– أبداً . كل ما حدث هو أنه عندما أنشئ مجلس فؤاد للبحوث العلمية سنة ١٩٤٥ (المركز القومي للبحوث الآن) اختاروني أول مدير له . ومن المجلس دعيت لمنصب وزير الشئون الاجتماعية في حكومة برئاسة حسين سري . كان هذا قبل الثورة . وعندما تركت الوزارة عدت للعمل سكرتيراً عاماً لمجلس فؤاد للبحوث العلمية ، الذي تغير اسمه ، إلى أن استقلت في سنة ١٩٥٣ . وبعد استقالتي بأسبوع عينت مديراً لجامعة القاهرة .

– ولكنك لم تعمل مديراً للجامعة إلا سنة واحدة . .

– نعم .

– هل تعتقد أنك نفذت أفكارك في الجامعة ؟

– لا . .

– لماذا ؟

– لم يكن الجو علمياً .

– ماذا تقصد بذلك ؟

– أقصد أن الناس عندما تشغل نفسها بالبحث عن المناصب ، والسعى إلى الوظائف . . يصبح الجو العلمى مسمماً ، ويصبح التفكير العلمى مستحيلا :

– وما الغريب فى ذلك ، إذا كان هذا يحدث فى المجتمع كله ؟

– ليس هذا غريباً ، ولكن الجامعة يجب أن تكون جامعة . . فقط . . إذا ضاعت الأخلاق والمبادئ من الجامعة . . ضاع كل شىء !

* * *

لحظات من الصمت !

الحزن . . والصمت . الأسف . . والصمت . التفكير . . والصمت . إن الواقع كله يقول ذلك . يقول إن المناخ العام للثقافة والعلم فى أى مجتمع ، تقرره تلك المجموعة الأكثر قوة فيه . إن هذا يرجع جزئياً إلى أن هذه المجموعات تملك السلطة اللازمة للسيطرة على نظام التعليم ، ومؤسسات التعليم ، ومؤسسات الدين والصحافة والمسرح والثقافة . إن القيم التى تدعو إليها هذه الأجهزة ، هى فى النهاية قيم تحكم المجتمع كله ، لأنها تمثل نجوماً تسعى الطبقات إليها . وحينما لا تكون الجامعة مرآة لهذه القيم التى تشد انتباه الناس إلى مستقبلهم . . فإن المجتمع كله يصبح بلا مستقبل ، والناس تصبح بلا قيم . إن الحضارات العظيمة ، والمجتمعات العظيمة ، لا تموت من الخارج أبداً . . إنها لا تموت إلا حينما تبدأ فى الانهيار من الداخل . إن السفينة لا تغرقها الأمواج المتلاطمة وسط المحيط إلا عندما تتسرب المياه من الثقوب فى داخلها . بغير ذلك

لا نهاية ولا موت ولا غرق ولا مرض .

أقول لأحمد زكي : كيف تفسر المرض الذى أصاب مجتمعنا فى العصر الحديث ؟ .

ــ أفسره بأنه مرض نحن الذين نسعى لعدم علاجه . .

ــ وكيف تفسر هزيمتنا أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧ ؟

ــ أفسرها بشيء أساسى : إن إسرائيل هى عرض واحد لمرض أصيبت به أمة بأكملها . أمة تفتت جسمها وانهارت قيمها وأصبح النفاق فيها وسيلة ، والرأى عصيان ، والصمت حكمة ، والطريق المعوجة هى طريق الناس للرقى والتقدم .

* * *

كانت هذه كلماته الأخيرة قبل أن أودعه مسرعًا إلى مطار الكويت لألحق بطائرتى عائداً إلى القاهرة . وفى المطار كانت هناك بضع كلمات ما زالت تلح على عقلى . كلمات كان صداها فى أذنى أقوى من كل شيء حولى ؛ أقوى حتى من أزيز الطائرة البوينج الضخمة التى تستعد للانطلاق . كلمات تقول : « إن الخطأ ليس فى النجوم التى تسيطر على حظوظنا ، بل هو فى داخل نفوسنا » .

كلمات قالها شيكسبير على لسان كاسيوس فى رواية يوليوس قيصر . !

الآن أقلعت الطائرة . الآن . . سقط القيصر ! . .

اقتصاد الكراسى الموسيقية



— آخرساعة . . عدد ١٦ أبريل سنة ١٩٦٩ .

فلا مجد فى الدنيا لمن قل مـــاله　　ولا مال فى الدنيا لمن قـــل مجده

هكذا قال الشاعر العربى المشهور أبو الطيب المتنبي منذ أكثر من عشرة قرون .

أما قبله بعشرة قرون فقد قال الشاعر الرومانى هوارس : المال سلطان يمنح القوة :

وبعد المتنبي بعشرة قرون أخرى قال الشاعر المصرى حافظ إبراهيم: كل شيء إذا ضرب هان . . إلا الذهب .

وهذا عن الشعر .

أما فى الدين فالقرآن يقول : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . . . والإنجيل يقول : إن حب المال هو سبب كل الشرور .

وفى الأدب قال الأديب الروسى تولستوى : إن النقود هى شكل جديد من أشكال العبودية .

من الفلسفة قال الفيلسوف الإغريقى القديم سقراط : إن النقود لا تصنع الفضيلة . . ولكن الفضيلة تصنع النقود .

وفى التراث الشعبي يقول الروس : « عندما تتكلم النقود .. تصمت الحقيقة » .

ويقول البولنديون : « عندما يكون معى نقود . . يسمينى كل شخص صديقه » ! .

إن هذه الأقوال الحكيمة كلها - وغيرها من الأقوال نصف الحكيمة - تعطينا آراء مختلفة فى المال ، أو فى النقود . إنها وجهات نظر مختلفة تعبر عن مواقف مختلفة للدين والأدب والشعر والفلسفة من هذه الكلمة الغامضة : النقود .

ولكن النقود هى - فى الواقع - شىء أبسط من هذا كله . النقود مقياس لتسجيل ما حققه شخص - أو ما حققته دولة - من مجهود . هذا الشخص يملك جنيهاً ، إذن هو قد تعب بما يساوى جنيهاً. هذه الدولة تملك مليوناً ، إذن هى قد عملت بما يساوى مليوناً من الجنيهات . النقود إذن هى مقياس معترف به - حتى الآن على الأقل - لقياس كفاءة الأشخاص وكفاءة الدول . مقياس عاجز أحياناً، مضلل أحياناً . . هذا صحيح . . ولكنه مقياس على أى حال .. إنها مشكلة يواجهها أى مجتمع ، وهى أيضاً الحل الذى يريده أى مجتمع . النقود هى المشكلة ، وهى الحل . هى المتهم ، وهى القاضى . كانت النقود هكذا منذ مدة طويلة سابقة ، وسوف تظل كذلك لمدة طويلة قادمة .

كانت النقود كذلك منذ قام إنسان العصر الحجرى باستخدام بعض أنواع السمك المجفف والأحجار نقوداً ، إلى أن انتقل بعد قرون طويلة إلى استخدام المعادن - ثم الورق - كنقود يشترى ويبيع بها .

ومنذ فجر التاريخ الحضارى للإنسان ، كانت النقود دائماً أحدا الأسباب الرئيسية فى ارتفاع وسقوط الحضارات والدول والأفراد .

إن قراءة التاريخ تقول إن كل حضارة متفوقة لم تصل إلى القمة إلا بعد

أن امتلكت أشياء كثيرة فى مقدمتها خلق – والاحتفاظ به– عملة متينة ثابتة . إن هذا صحيح ، حتى بالنسبة للحضارة الإغريقية . إن اليونان القديمة تدين بكثير من مجدها وعظمتها للنقود . فبعد أن أجرى الإمبراطور اليونانى «صولون» تخفيضاً ضخماً فى قيمة الدراخما سنة ٥٩٤ قبل الميلاد ، أصبحت العملة الإغريقية هى الوسيط الرئيسى للتجارة فى حوض البحر الأبيض المتوسط. بعدها حملت النقودالتجارة اليونانية – والثقافة اليونانية – إلى آسيا . .

وعلى الطرف الآخر نجد أن سقوط الإمبراطورية الرومانية جاء عقب انخفاض قيمة نقودها (عملتها) . فحينما بدأ الناس يقترضون بأسراف كانت النتيجة الحتمية هى انخفاض قيمة العملة ثم الكساد . ثم السقوط مرة أخرى . . كانت القسطنطينية قادرة على السيطرة على العالم لقرون طويلة . . وكان أحد الأسباب الرئيسية لذلك هو أنها أمتلكت عملة متينة قوية . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر تمتعت أسبانيا بعصرها الذهبى لأن المكتشفين جاءوا إليها بالذهب والفضة من الدنيا الجديدة (الأمريكتين) . وبإستخدام هذه الثروة كانت أسبانيا قادرة على تمويل ثقافة وفن ما زالت دلائلهما موجودة إلى اليوم .

إن التاريخ إذن يكرر لنا هذا الدرس الكبير والخطير : إن النقود كانت دائماً سبباً رئيسيًّا فى ارتفاع وانهيار الحضارات . . والإمبراطوريات . . والدول . إن وجود عملة متينة مستقلة هو دائماً المشكلة وهو الحل . إن المجتمعات الإنسانية المختلفة – ابتداء من فينيقيا القديمة إلى سويسرا

المعاصرة ـــ قد أثبتت أنها تستطيع أن تزدهر برغم افتقارها غالباً إلى الموارد الطبيعية . تستطيع أن تزدهر لأنها تفوقت فى معرفة أسرار التجارة وأعمال البنوك والوسائل الأخرى فى التعامل بالنقود .

وعندما نتكلم عن النقود فإننا نتكلم فى الواقع عن الاقتصاد . فالنقود ـــ مع قليل من التجاوز ـــ هى الاقتصاد . ومناقشة مشكلة النقود هى فى الواقع مناقشة لمشكلة أكبر : المشكلة الاقتصادية .

عند هذه النقطة بالضبط يصح أن نستمع إلى حسن عباس زكى وزير الاقتصاد ، وهو يقول :

« ..إن المشكلة الاقتصادية هى كيفية استخدام موارد المجتمع المحدودة لإشباع حاجات أفراده غير المحدودة . فى أى مجتمع رأسمالى أو اشتراكى رجعى أو تقدمى ، يمينى أو يسارى ـــ هناك موارد محدودة . ومقابل ذلك هناك رغبات غير محدودة لكل فرد من أفراده . إن الموارد لاتسمح بإشباع هذه الرغبات غير المحدودة . إذن . . لا بد من الاختيار . لا بد من إعطاء أولويات. ما هى هذه الأولويات ؟ كيف توضع .؟ كيف تنظم .؟ هذه هى المشكلة الاقتصادية . . معنى ذلك أن علم الاقتصاد هو ـــ بالتعريف ـــ علم يتناول مشكلات استخدام موارد محدودة لإشباع رغبات غير محدودة .

« . . المسألة ببساطة هى كلعبة الكراسى الموسيقية . لدينا عشرة كراسى ، ولدينا مائة شخص يريدون الجلوس على هذه الكراسى . مشكلة . من الذى سيجلس ، ومن الذى لا يجلس؟ بالطبع لا بد من إجلاس أكبر

عدد ممكن من الأشخاص على هذه الكراسى . كيف ؟ إن هذا يصور تماماً المشكلة الاقتصادية . الكراسى الموسيقية هى الموارد . المائة شخص هم أفراد المجتمع .

« . . وكل منا — بدرجة أو بأخرى — هو خبير اقتصادى . مثلا : أنت تريد أشياء كثيرة . تريد أن تأكل . . أن تسكن . . أن تلبس . . أن تركب سيارة . . . إلخ . هذه هى مطالبك ، وهى عادة غير محدودة .

« وفى مقابل ذلك فأنت تملك مرتبك . . وهو عادة محدود جـداً إن مرتبك هو مورد ثروتك ، وأنت مضطر فى النهـاية إلى أن تختار جزءاً من رغباتك لتحققه بثروتك . الجزء الآخر ستظل تسعى إليه ، أو تحلم به ، حسب الأحوال .

« . . . ولو ضربت هذا المثال فى ٣٥ مليوناً ، فسوف يظهر أمامك فوراً حجم المشكلة التى يواجهها المجتمع كله ، رغبات غير محدودة . وموارد محدودة . وعلى المجتمع أن يضع الأولويات وأن يختار : ما هو العاجل . . وما هو القابل للتأجيل . . . وفى النهاية فأنت ترى قرار المجتمع مطبقاً فى السوق . كل سلعة لها ثمن . هذا الثمن هو المجهود الذى يطلبه منك المجتمع مقابل الحصول على هذه السلعة .

« . . والثمن هو أيضًا تعبير عن توافر السلعة أو ندرتها . الهواء وضوء الشمس مثلا بغير ثمن . . لأنهما متوافران بكثرة . الذهب له أغلى ثمن . . لأنه أكثر ندرة . إن النقود التى تدفعها كل يوم هى إذن مقياس لقيمة هذه السلعة أو تلك . ومن ناحية أخرى فإن النقود التى تكسبها الدولة فى تعاملها مع الدول الأخرى هى أيضًا مقياس لمقدار العمل الذى بذلته .

« . . على أنى أختلف معك فى رأيك أن النقود ـ أو الأموال ـ لها وحدها الكلمة الأخيرة والحاسمة فى ارتفاع أو سقوط الدول ، والحضارات . . إنها طبعاً مقياس . ولكن ، هل تستطيع مثلا أن تفسر انتشار الإسلام فى قرنه الأول بناء على عوامل اقتصادية !! . »

ما هذا . . ؟

لقد بدأ حسن عباس زكى فى التحدث عن الاقتصاد ، ولكنه انتهى بالتحدث عن الدين . وحتى لا تهتز المناقشة فلابد أن نختار موضوعاً واحداً فقط منهما ثم ننتقل إلى الآخر . أو ـ وهذا حل وسط ـ لنترك كلا الموضوعين ونبدأ بالرجل نفسه !

إن حسن عباس زكى ولد فى سنة ١٩١٧ . ولد أصلا فى بورسعيد . ولكن شخصيته هى خليط مشترك من حرارة أسوان وبرد الإسكندرية . خليط من حماس شاب وحذر عجوز . خليط من تفاؤل المتصوف وحزن المثقف .

وفى قلب هذا الرجل يسير القرن السابع والقرن العشرون جنباً إلى جنب ، يداً بيد ، قدماً بقدم ، خطوة بخطوة . . القرن السابع : قمة الحضارة العربية . والقرن العشرون : قمة التحدى الذى تواجهه الحضارة العربية . ماض يتخلى عنّا بغير أسف . . ومستقبل ينظر إلينا بحذر . ذكرى تغرق بعظمة . . ومجد يولد بصعوبة .

وعقل هذا الرجل يقع دائماً بين طرفى المقص . أكثر من مقص . إنه متفائل دائماً . . مع أن فى حياته مأساة كبرى .

إنه منتخب شعبياً ، ومع ذلك فهو وزير . مقص آخر .

إنه متدين ، ومع ذلك فهو اقتصادى . مقص ثالث .

وجسم هذا الرجل ليس عملاقاً ، ليس قصيراً ، لكنه جسم متحرك . أما وجهه فأكثر تحديداً كلما اقتربت منه . الشعر أسود مثلث فى المقدمة .. مائل للبياض كلما نظرنا إلى جانبى رأسه . . الجبهة عريضة . العينان رماديتان . الحاجبان كثيفان . إنه يتحدث بسرعة ، وبثقة ، وبمتعة .

ونحن نجلس فى صالون منزله . صالون واسع . سورة يس فوق رأسك . منضدة منخفضة أمامك . باب الشقة على يمينك . مائدة الطعام على يسارك . تستطيع إذن أن تختار ما يعجبك : تخرج فوراً ، أو تجلس ضيفاً !

إن حسن عباس زكى يجلس الآن بجانبى . قدم فوق قدم . فانلة صوف فوق بنطلون بنى ، يد تداعب المسبحة بلطف ، مسبحة خضراء ، ويد أخرى تمسك بالمسبحة أحياناً . . وتنفصل عنها أحياناً أخرى .

أقول لحسن عباس زكى : متى تشعر بالسعادة ؟

وهو يرد : عندما أكون على وفاق مع نفسى .

ـــ ومتى تكون على وفاق مع نفسك ؟

ـــ عندما أفهم سر السعادة .

ـــ حسناً . . ما هو سر السعادة ؟

ـــ الإنسان لا يكون سعيداً إلا إذا انبثقت أسباب سعادته من داخله . الدنيا وما فيها لا تساوى جناح بعوضة إذا لم يكن الإنسان على وفاق مع

نفسه ومع ربه . عندما يكون قلبى دائماً مع الله ، وأملى دائماً فى الله ، واعتمادى دائماً على الله ، ورجائى دائماً لله ، وخوفى دائماً من الله . . فإننى أكون سعيداً. ساعتها تهون كل خسارة ، خسارة المال، خسارة الوظيفة. ساعتها لن أكون عبداً لأحد سوى الله . ساعتها لن أكون عبداً لرغبة إلا رغبتى فى إرضاء الله . ساعتها سأركز حياتى فى القيام بواجبى وإرضاء ضميرى ، وما يحدث لى بعد ذلك فهو نصيبى من الله .

— ما هى أكبر الكتب التى تأثرت بها فى حياتك ؟

— القرآن .

— ماذا أيضًا . . ؟

— السيرة النبوية .

— هل ترى أن تمسك الناس بالدين قد أصبح أقوى عندهم بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ؟

— ليس بالضبط . فالإيمان الدينى عند الشعب العربى بصفة عامة كان موجوداً دائماً ، ربما لا تظهر قوته الحقيقية إلا عند الأزمات ، ولكنه موجوداً دائماً . وفى حالات التحدى . . يكون الإيمان الدينى — هذا الشعاع الهابط من السماء — عاملا أكبر فى تقوية هذه الأمة ونصرها . إن هذا الإيمان جعل الشعب العربى يقف ضد الصليبيين فى القرن الثالث عشر ويأسر لويس التاسع فى موقعة المنصورة. وهذا الإيمان نفسه هو الذى وحد الشعب ضد سلالات المغول فى القرن السادس عشر ، وضد جيوش جيوش نابليون فى أواخر القرن الثامن عشر. كما أنه أرغم جيوش العثمانيين

على الخضوع لرأى الشعب فى أوائل القرن التاسع عشر ، وجعل رشيد تمزق جيوش بريطانيا أشلاء . لقد عرف الشعب قوة الإيمان خلال هذه المعارك كلها ، وعرفه أيضاً فى الكفاح ضد الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ ، وضد جنود الاحتلال سنة ١٩٣٥ ، وسنة ١٩٥١ . إن التاريخ يثبت لنا أن الإيمان بالله — والتمسك بالله — قد جلب لنا النصر دائماً . فى الماضى وفى المستقبل .

قلت لحسن عباس زكى : سيدى ، إننى أتفق معك من حيث الواقع التاريخى ، ولكنى أختلف معك بشدة فى نقطة أخرى . هذه هى : أننى أرى أن المشكلة ليست فى أن نؤمن بالله أو لا نؤمن .. يزيد إيماننا أو أو ينقص . . ولكن المشكلة هى أننا نتطلع إلى الله كثيراً ليقوم عنا بأداء واجباتنا ، وحينما نهزم فليس هذا بالضرورة لأن إيماننا قد أصبح أقل ، ولكن لأننا فى الواقع أسوأ أعداء لأنفسنا . إننا فى الواقع نحن الذين كنا نهزم أنفسنا بأكثر مما هزمنا الآخرون . هذه هى المشكلة كما أراها ياسيدى . قائمة طويلة بالواجبات نعفى أنفسنا منها وننسبها إلى الله . ما ظلمنا الله بذلك ولكننا ظلمنا أنفسنا .

فكر حسن عباس زكى لحظات ثم بدأ يرد : إن هذا ليس بديلا لذلك . الإيمان بالله ليس بديلا عنه القيام بواجبنا : بل إن قيامنا بواجبنا هو جزء من إيماننا بالله . أليس كذلك ؟

قلت : ليس كذلك . أو — على الأقل — ليس هذا مما نفعله . فنحن دائماً فى واحد من الطرفين، منتهى الإيمان ، أو منتهى الكفر .

وعموماً فهو موضوع واسع ، أعتقد أننى أختلف معك فيه .. هل تسمح لى الآن بأن أغير الموضوع ؟ حسناً . . لنستمر فى الدين قليلا . . من هى الشخصية الدينية التى تأثرت بها واحترمتها أكثر من غيرها ؟

ويرد حسن عباس زكى : الإمام الغزالى .

ــ لماذا ؟

ــ كان الغزالى فقيهاً ومتكلماً ومصلحاً دينيًّا واجتماعيًّا وصاحب ، رسالة روحية كان لها أثر كبير فى الحياة الإسلامية . ومن أهم كتبه التى أعتز بها كتابه (المنقذ من الضلال) . . وهو يعرض فيه تجربته الروحية ونتائج تقييمه لها . لقد كان الإمام الغزالى يرى أن الإنسان تحكمه ثلاث دوائر . . دائرة المادة وهى التى تتحكم فيها حواسه ، ودائرة العقل .. ودائرة القلب . إن معظم الناس يعيشون فى الدائرتين الأوليين : ما بين ، حواسهم وعقولهم ، وهذا خطأ . ولكن لو أعطى الإنسان لقلبه منزلة أعلى من عقله وحواسه لأصبح أكثر اكتمالا . فالقلب هو الذى يتأثر بالعقيدة والمثل العليا ، وهو الذى يمنع العقل من الانحراف . بمعنى آخر أستطيع أن أقول لك . . إن ضمير الإنسان يجب أن يسيطر على عقله وحواسه ، ما لم نفعل ذلك فسيظل ضميرنا فى أزمة ، لأن العقول والحواس تستطيع أن تنتهى فى تسابقها إلى الشر .

قلت : ولكن الإمام الغزالى ــ وهو رجل عاش حياته فى القرن الحادى عشر الميلادى ــ قد نادى بطريقة فى التصرف لا تساعد بطبيعتها على

البحث العلمى والدراسة المنظمة . إنها طريقة الشطحات العقلية والتفكير الغيبى و . . .

ـ إن الإمام الغزالى نفسه حذر من هذه الاتجاهات. ومن ثم فهو ليس مسئولاً عن التطبيق السيئ لأفكاره، لأن أفكاره هو لا تتضمن شيئاً من ذلك.

ومرت بى لحظات صمت قبل أن أقول : دعنا ننتقل إلى القرن العشرين . . كيف ترى مكان الدين فى القرن العشرين ؟

ويرد حسن عباس زكى : لقد كان القرن التاسع عشر ـ فى العالم كله ـ هو عصر الشك فى الإيمان والدين ـ عصر الإلحاد . ولكن القرن العشرين ـ فى رأيى ـ هو عصر الشك فى الإلحاد . . إن الدين سوف يصبح أقوى ، وهذه مسألة حتمية .

* * *

ولنغير الموضوع !

للمرة الثانية سوف أفعل ذلك حتى أتعامل مع الجانب الآخر فى عقل حسن عباس زكى . إنه يتحدث فى لحظة كصوفى ، وفى اللحظة التالية ، كاقتصادى . مرة كخيالى ، ومرة كواقعى ، مرة كمفكر ، ومرة كمنفذ . ولقد سمعت من حسن عباس زكى آراء كثيرة ـ بعضها اتفق معه وبعضها اختلف عليه، ولكنى لا أملك فى النهاية سوى أن أحبه . هذه هى النقطة. تستطيع أن تتفق مع ـ أو تختلف على ـ آراء يقولها هذا الرجل . ولكنك لا تملك فى النهاية سوى أن تحس أنه صديقك ، صديقه ، صديق لكل الناس، إنه فى الواقع ينظم لنفسه شخصية كقائد أوركسترا .. بحيث تخرج

فى النهاية بشخصية متكاملة متزنة . عندما يصلى فهو مؤمن كما لم يكن مؤمناً .. وعندما يدرس فهو اقتصادى كما لم يكن اقتصادياً .. ولقد سمعت عدداً من وزراء الاقتصاد العرب يعتبرون حسن عباس زكى خبيراً وأستاذاً وكانوا يتسابقون فى ضرب الأمثلة .

وشاهدت حسن عباس زكى بنفسى عندما حضرت الاجتماعات المشتركة لصندوق النقد الدولى والبنك الدولى بمدينة واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية . كان بسيطاً ، وكان مقنعاً . وكان رؤساء وفود الدول الأعضاء – وكلهم وزراء اقتصاد ومالية – يحبون للاجتماع به وتبادل الرأى معه ، لم تكن تراه وحده إلا نادراً . كان دائماً مع هذا الوزير ، مع هذا الوفد ، مع روبرت ماكنمارا رئيس البنك الدولى . وفى أحيان كثيرة كنا ننزل معاً – هو وأنا – نتجول وحدنا فى شوارع واشنطن ومكتبات واشنطن نبحث عن كتب جديدة نشتريها .

وكان ماكنمارا يعرف القضية الرئيسية التى تشغل بال الوفود كلها . . لقد لخصها وقتها – بكلمات قليلة . هذه هى : « إن معدل النمو السنوى لدخل الفرد فى أمريكا اللاتينية هو أقل من ٢٪، فى شرق أفريقيا مجرد ٢٪ ، وفى أفريقيا عموماً مجرد واحد فى المائة، فى جنوب آسيا مجرد نصف فى المائة . هذا معناه أنه لو استمرت هذه المعدلات فإن مضاعفة الدخل الفردى فى شرق أفريقيا سوف يستغرق ٣٥ سنة، فى أمريكا اللاتينية أكثر من ٤٠ سنة ، فى أفريقيا حوالى سبعين سنة ، وفى جنوب آسيا مائة وخمسين سنة !!.. إن مثل هذا الموقف يستدعى مجهوداً ملحاً وعاجلاً من

الدول الغنية لمساعدة النمو الاقتصادى فى الدول الفقيرة . إنها قادرة على ذلك. فخلال السنوات التسع الماضية ، زاد الدخل السنوى الفعلى للدول الغنية بمقدار ٤٠٠ بليون دولار . . زيادة هى فى حد ذاتها أكبر من مجموع الدخل السنوى لكل الدول النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية !!!

تلك الأرقام التى سمعناها من ماكنمارا كانت تمثل حقيقة مفجعة . حقيقة عسرة الهضم . . وعسرة الكتابة أيضاً .

وأسأل حسن عباس زكى : إلى أى درجة يمكن للعمل المشترك بين الدول النامية أن يخلق مناخاً ملائماً لانتصارها فى معركتها القاسية ضد الفقر ؟

ويرد وزير الاقتصاد : إن الدول النامية — ونحن من بينها — تواجه كثيراً من المشاكل — كالتمويل وغيره — فى مشروعات التنمية . ولكن هذه المشاكل ليس معناها أن تعقد الدول النامية هدنة مع الفقر الذى ورثته . بالعكس . لا هدنة مع الفقر ، وإلا أدت إلى مزيد من الفقر .. فكل تأخر فى التنمية الاقتصادية تدفع الدول النامية ثمنه مضاعفاً . ولكننى أتصور أن محاربة الفقر فى عالمنا المعاصر لم تعد مجرد مشكلة اقتصادية فحسب ، بل أصبح لها أيضاً وجهها السياسى . وإذا كان الجهد الخاص لكل دولة نامية داخل حدودها كفيلا بأن يحل الجانب الاقتصادى للمشكلة . . فإن الجهد المشترك بين الدول النامية عموماً هو الذى يكفل حل الجانب السياسى . إن الدول النامية — عندما تنزل بمنتجاتها إلى الأسواق الدولية — تجد نفسها وحيدة بين طرفى هذه النتيجة : قروض أقل وأقل . . تكلفها أكثر فأكثر — ثم إنتاج أكثر فأكثر يحقق

لها إيراداً أقل فأقل !

قلت : هذا مقص تقف الدول النامية بين طرفيه . . .

ــ نعم . وحتى بدون ارتفاع فوائد القروض وانخفاض أثمان الصادرات ، فإن الحقائق ما تزال مفجعة . إن ثلثى سكان الدول النامية مثلا يعملون فى الزراعة ، ومع ذلك فإن الدول النامية تجد أنفسها مضطرة سنويًّا لاستيراد طعام من الدول الصناعية قيمته أربعة آلاف مليون دولار . . تصور ؟

قلت : إننى متصور طبعاً . وأتصور أن المشكلة فيها أيضاً ، جانبها السياسى كما تقول أنت ــ فنى قمة العصر الاستعمارى مثلا كان سدس العالم غنيًّا وقويًّا .. وكانت خمسة أسداسه الباقية ضعيفة ، وفقيرة . إن الحال لم يعد كذلك اليوم . إن السدس الغنى ما زال على غناه هذا صحيح ــ ولكنه أصبح يقف موقف الدفاع من الناحيتين السياسية والاقتصادية . ولا تزال بقية دول العالم على فقرها ، ولكنها تلتزم موقف الهجوم فى غضب .

قال حسن عباس زكى : « حتى الغضب أصبح له ثمن مرتفع ! إن التنمية هى أحد الوجوه الإيجابية لغضب الدول النامية من ماضيها وفقرها . ومع ذلك فإن الدول النامية ــ فى النصف الثانى من القرن ، العشرين ــ تجد نفسها مضطرة لأن تدفع ثمناً للتنمية أغلى بكثير جداً من الثمن الذى دفعته الدول المتقدمة التى أنجزت عملية التنمية فى القرن التاسع عشر ، أو أوائل القرن العشرين .

فأولاً : أن عملية التصنيع فى الدول النامية عموماً .. تحمل الآن مسئوليات

اجتماعية فوق مسئولياتها الاقتصادية التقليدية . إن الرأسمالى الذى كان يبنى مصنعاً منذ ١٥٠ أو ١٠٠ سنة كان لا يدفع للعامل مثلا إلا ما يكفى لسد رمقه . لم تكن هناك تأمينات اجتماعية ولم يكن هناك حد أدنى للأجر ولم يكن هناك حد أقصى لساعات العمل . . إلخ . . أما الدول النامية التى تقوم الآن بعملية التصنيع الذاتى ، فإنها تحمل فوق كتفيها مقدماً مسئوليات اجتماعية للوفاء بحاجة الجماهير إلى العدالة . فالمشكلة الاقتصادية هنا تجد نفسها مكلفة بحل مشكلة أخرى اجتماعية وسياسية .

ثانياً : أن عمليات التوسع الاستعمارى أو الضغط الشديد على القوى العاملة أو كليهما . . قد كفلا مصدراً خصباً أمام الدول الأوربية فى الماضى فى تكوين احتياطى متراكم من رأس المال يستخدم من جديد فى مزيد من التنمية .

وثالثاً : أن التنمية الاقتصادية الآن تواجه مقدماً توقعات كثيرة من الجماهير — كان الاقتصاد معفى منها فى القرن الماضى .

والخلاصة . . أن المشكلة الاقتصادية هنا قد حملت فوق أكتافها مقدماً مشكلة أخرى اجتماعية وسياسية » .

* * *

المشكلة الاقتصادية . . نعم !

إنها مشكلة قديمة تطل علينا بوجه جديد . مشكلة تضاربت الاتجاهات فى حلها واختلفت الجهود فى محاولة التغلب عليها . إنها سبب لكل حرب ونهاية لكل سلام . إن الإقطاع والرأسمالية والاشتراكية

والشيوعية ، هى مجرد وجهات نظر لحل هذه المشكلة . الأديان والتقاليد ، ونظم الحكم كانت تجد نفسها أيضاً أمام ضرورة اتخاذ موقف من أسلوب حل هذه المشكلة .

فى مصر الفرعونية مثلا كان الدين يفرض على كل شخص أن يزاول مهنة أبيه ، وإذا احترف غيرها فإنه كان يعتبر « مرتكباً لأبشع تدنيس لحرمة المعتقدات » .

وفى الهند حتى وقت قريب كانت التقاليد تفرض على الأفراد أعمالاً معينة تتفق والطبقة التى ينتمون إليها . فالفرد هنا تولد معه الحرفة التى يجب عليه أن يمارسها فى المستقبل .

وإلى جانب الدين والتقاليد كان المجتمع يلجأ إلى وسيلة أخرى ، لتنفيذ وجهة نظره فى حل المشكلة الاقتصادية . هذه الوسيلة هى السلطة المركزية التى تحدد للناس الأعمال التى تراها لازمة للمجتمع لكى يستمر اقتصادياً . إن أهرامات الجيزة مثلا ، لم يتم بناؤها لأن مقاولا جريئاً فكر فى ذلك . كما أن مشروعات السنوات الخمس فى الاتحاد السوفييتى لم تنفذ لأنه تصادف أنهـا تتمشى مع عادات الأفراد . إن . الوسيلة هنا هى سلطة واحدة تتخذ قرارات معينة يقوم المجتمع بتنفيذها . قرارات — هى من وجهة نظر من يتخذها — كفيلة بحل المشكلة الاقتصادية .

وفى عالمنا المعاصر فإن المجتمع — كل مجتمع رأسمالى أو اشتراكى . . رجعى أو تقدمى — يضع فوق كتف الخبير الاقتصادى مسئولية تنفيذ الحل الذى يراه للمشكلة الاقتصادية .

من هو الخبير الاقتصادى ؟ إنه ــ ببساطة ــ الشخص الذى يعرف عن النقود أكثر مما يعرفه الشخص الذى يملك هذه النقود !

والاقتصادى الممتاز يجب ــ فى الواقع ــ أن يملك مزيجاً نادراً من المواهب. يجب مثلا أن يكون رياضياً إلى حد ما . يجب أن يحمل أيضاً شيئاً من صفات المؤرخ ، والسياسى ، والفيلسوف . يجب أن يدرس الحاضر على ضوء الماضى لفائدة المستقبل . الاقتصادى يجب عليه ــ كالسياسى ــ أن يكون أحياناً قريباً من الأرض . . ولكنه عليه ــ كالفنان ــ أن يكون قريباً من السماء . ثم عليه دائماً أن يكون دقيقاً كالعالم .

وأعود إلى سؤال حسن عباس زكى : لماذا اخترت لنفسك من البداية دراسة الاقتصاد والتخصص فيه وخصوصاً أنك التحقت بكلية التجارة فى سن مبكرة ــ ١٧ سنة ــ وتخرجت فيها فى سن مبكرة أيضاً ــ ١٩٣٨ ؟

وهو يرد : « المسألة أننى فى شبابى ــ كأى شاب فى أى وقت ــ كانت تراودنى أمنيــــة فى قرارة نفسى : أن أشترك فى عمل أو مجهود لإصلاح هذا المجتمع . أن أشارك فى خلق المواطن المتوازن نفسياً واجتماعياً إن الدين يعطينا المفتاح للتوازن النفسى . والاقتصاد يعطينا المفتاح الآخر للتوازن الاجتماعى . هذه هى المسألة التى شغلتنى دون أن تقترن فى عقلى بوظيفة أو بمركز » .

نعم فى هذا الجانب كان حسن عباس زكى نموذجاً لشاب بدأ ، السلم من أول درجة فيه . لقد بدأ حياته العملية ــ بعد تخرجه فى الجامعة

بالعمل فى بنك التسليف الزراعى . موظف حسابات . مساعد مراجع . سنة وسنة وسنة . إلى أن انتقل إلى بنك مصر ، ثم إلى بنك التسليف مرة أخرى ثم وزارة التموين سنة ١٩٤٣ إلى أن أصبح فى الوزارة مشرفاً على مراقبة الغزل والمنسوجات .. بعدها انتقل الموظف – ما زال صغيراً – إلى وزارة الاقتصاد . انتقل موظفاً فى قسم التجارة الخارجية، ثم إلى وزارة المالية . . فمستشاراً تجارياً ، لسفارتنا بواشنطن فى الولايات المتحدة . عن هذه الوظيفة يقول حسن عباس زكى .. « إنها كانت نقطة تحول فى حياتى ، لقد وجدت نفسى وسط مجتمع مختلف ، وحضارة مختلفة . وجدت نفسى أتعامل من مستويات دولية مختلفة . . ولقد خرجت فى النهاية بأن الدول المتقدمة ليست أكثر منا ذكاء . ولكنها أكثر تنظيماً ، وأكثر إيماناً بعلم الإدارة » . .

بعد عمله فى وشنطن عاد حسن عباس زكى ليصبح وكيلا لمصلحة القطن . فى تلك الأيام . . «كنت قد بدأت أهتم بدراسة أعمال البورصة والبحوث التسويقية عموماً ». ثم أصبح مندوباً للحكومة فى بورصة القطن بالإسكندرية . فمدير عاماً للنقد . إنها . . فترة أعتز بها فى حياتى . فترة صعبة . إنها الفترة التى جمدت فيها أرصدتنا من العملات الأجنبية الغربية بعد تأميم قناة السويس . كانت فترة تحد لكل مواطن فى موقعه . . وكنا نحس – مع صعوبة المهمة – بضرورة عدم السماح بألا تهزم بلدنا اقتصادياً . » بعدها بسنوات أصبح حسن عباس زكى وزيراً للخزانة ، فوزيراً للاقتصاد ، فالتموين مع الاقتصاد ، فرئيساً لشركة ،

فرئيساً منتخباً للجنة الخطة والميزانية بمجلس الأمة ، ثم رئيساً لمؤسسة التأمين . . . إلى أن عاد من جديد وزيراً للاقتصاد .

وحسن عباس زكى متزوج . وله ولد (٢١ سنة) وثلاث بنات ، (أكبرهن سوسن — ٢٠ سنة ، طالبة بالجامعة الأمريكية) .

وحسن عباس زكى من الذين يستيقظون مبكراً . الخامسة صباحاً . لصلاة الفجر ويقرأ فى مكتبه من الثامنة والنصف ، وأحياناً من الثامنة . عمل حتى الثالثة والنصف ظهراً . الغذاء . ساعتان لاستكمال أعمال الوزارة فى المنزل. قراءة . النوم فى الحادية عشرة مساء ينام خمس ساعات .

ومن النادر أن يشاهد حسن عباس زكى أفلام السينما . آخر مرة منذ ست سنوات . المسرح أكثر من ذلك . آخر مسرحية شاهدها هى السلطان الحائر لتوفيق الحكيم .

ومكتبة حسن عباس زكى فى منزله ضخمة ومتنوعة : تتراوح كتبها من الدين إلى الفلسفة والاجتماع والفلك والأدب إلى الدين مرة أخرى . إن الدين والتصوف مسألة وراثية عند حسن عباس زكى . خاله كان شيخاً للصوفية ونقيباً للأشراف بمدينة بورسعيد . جده كان إماماً دينياً. عندما بدأ يقرأ كان يريد إجابة على سؤال محدد : لماذا تدهور حال المسلمين ؟ هل هذا يرجع لعيب فى دينهم ، أو لعيب فى أنفسهم ؟ . . ثم « لكى أجد إجابة على هذا السؤال وجدت نفسى أقرأ فى التاريخ والطب وعلم الاجتماع والفلسفة والسياسة .. إلخ ..

وأسأله : هل وجدت الإجابة ؟

وهو يرد ردوداً كعناوين موضوعات . يقول :

« إن صلاح الفرد هو بداية صلاح المجتمع كله . إن بداية الإصلاح يجب أن تكون بالفرد نفسه .

« إن الحقيقة الأصيلة التى لا نزاع فى تقديرها أن عللنا الوبيلة كامنة فى نفوسنا . . هذه العلل هى ضعف المعانى الروحية وعدم الشعور بالمسئولية المشتركة .

« إن الإنسان حينما يصبح قوة روحية إنما يصبح فى الواقع قوة لا تقف أمامها أية قوة ، وهذا هو سر تفوقه ، وسر بقائه » .

و . . . . . .

مرة أخرى : ربما أختلف مع حسن عباس زكى فى الرأى أحياناً وربما اتفق أحياناً ، ولكنه فى النهاية يظل هو هو : صديقى ، صديقك صديقنا جميعاً .

* * *

توفيق الحكيم تحت الفحص



- آخر ساعة . . . عدد ١٥ مارس ١٩٦٩ .

تنبيه ضرورى . . جداً ، قبل أن ندخل فى الموضوع .

بدأت مرة فى إعداد دراسة لشخصية فنان مشهور فى بلدنا . فنان كبير . وعندما بدأت أستعرض معه الشكل النهائى للدراسة فوجئت به يعترض قائلا : أرجوك . . لا داعى لهذا السؤال . . لهذه الجملة . . لهذا الإحراج . . لهذا النقد . .

واعترضته قائلا : لا داعى للدراسة كلها . . !

أنت يا سيدى رجل عظيم . ربما أكثر . ولكن المشكلة هى أننى – ومعى فى ذلك جيل جديد كامل فى بلدنا – قد أسقطنا كل الأصنام من حياتنا ، المشكلة ياسيدى هى أننا – منذ وقت طويل مضى – قد اتخذنا قراراً بألا نعفى أحداً من النقد . . والمراجعة . . والفحص .

المشكلة يا سيدى هى أننا نرى أن الرجل العظيم لا يكون عظيما قبل أن يتعرض للنقد . . ويحرض عليه .

هذه يا سيدى هى شروطنا قبل أن نعطيك أذناً تسمعك . . أو عينا تقرأك . .

و . .

لم يقتنع الفنان المشهور . إنه يريد التصفيق . . ونحن نريد المناقشة . صدام أجيال .

إنه لم يفهم . . .

إنه – حتى – لا يريد أن يفهم . . ماذا جرى . . ولا متى جرى ! !

و . . الكلام لك ياجارة !

سألت توفيق الحكيم : لماذا تكتب ؟

أجاب : إننى منذ مدة طويلة . . لم أكتب . .

قلت : إذن . . حينما تكتب . . فلماذا ؟

أجاب : لأن الفنان لا بد أن تكون له وجهة نظر فى الحياة وفى الناس ، وفى الأفكار . الفنان ليس مجرد متفرج . إنه متفرج وصانع لمجتمعه فى وقت واحد . وأنا . . أعشق الفن .

قلت : لماذا لم تتجه إلى فرع آخر من فروع الأدب . . . لنقل الشعر مثلا ؟

توفيق الحكيم : « طبعاً أنت ترجع بى الآن إلى أيام شبابى. لأن فترة الشباب هى فترة الاختيار . اختيار المواقف .. واختيار الأفكار .. واختيار المستقبل . والواقع أن الشاب عندما يختار الشعر مثلا .. فإنه يلجأ إليه تلبية لنداء الفن فى أعماقه، فبعض النفوس التى يستيقظ فيها شيطان الفن تحاول أن تجد له مخرجاً وثياباً . والشعر أقرب تلك الأثواب تناولا للشاب . فالنموذج أمامه فيما حفظ من شعر الشعراء ، وما عليه إلا أن يسير على الدرب . هذا إذا لم يكن هناك ثوب آخر كالموسيقى أو الرسم أو التمثيل قد حل فيها الشيطان من قبل . . وتلك كانت حالتى حينما كنت أعيش فترة الاختيار — أقصد فترة شبابى . كان شيطان الفن عندى قد ارتدى ثوب التمثيلية قبل أن يلتفت إلى ثوب القصيدة الشعرية . وحتى عندما اتجهت فيما بعد إلى كتابة الرواية والقصة ونحوهما ، فلقد فعلت ذلك بدافع العقل الواعى والحاجة الماسة . حاجتى إلى التعبير عن حماسى لبلادى ورؤيتى

لتطور مجتمعى . وحاجة الأدب وقتئذ إلى إقرار هذه القوالب الجديدة على نحو جاد . . لتحمل موضوعات جديدة .. ما كان يمكن أن تحملها غير الرواية والقصة . أيضاً لم تكن فى شبابى فروع معترف بها بعد من الأدب العربى . إنهما كانتا كمهنة التمثيل والموسيقى والتصوير والنحت .. أشياء لا يقربها إلا المغامرون » .

باختصار .. يريد الحكيم أن يقول إنه كان جريئاً .

إن الموقف يتطلب منه جرأة .. لكى يتجه إلى الكتابة المسرحية أولا . . ثم إلى القصة والرواية فى فجر حياته . فالمجتمع — وهذا صحيح — لم يكن قد اعترف بعد بهذه الوسائل كفروع من الأدب . ولكن المجتمع هو هو دائماً . يعارض دائماً تلك الأقلية التى تبرز من بين أعضائه لكى تنبهه .. إلى أن تهزمها الأقلية المصممة .. وتنتصر عليها . هكذا عارض المجتمع قاسم أمين حينما كتب عن ضرورة تحرير المرأة ، وعارض طه حسين حينما أعاد النظر فى الأدب العربى . . وعارض الدكتور محمد حسين هيكل — رحمه الله — حينما كتب فى سنة ١٩١١ روايته (زينب) — فجر الرواية المصرية . بل إن هيكل لم يجرؤ على أن يضع اسمه على قصته عندما طبعها لأول مرة .. خوفاً من غابة كبيرة اسمها .. المجتمع المصرى !

ولماذا نذهب بعيداً .. ؟

إن توفيق الحكيم نفسه تردد سنوات طويلة قبل أن ينشر أول رواية له — رواية عودة الروح . لقد ألفها سنة ١٩٢٧ ؛ ولكنه لم يطبعها إلا فى

سنة ١٩٣٣ .. رواية أعطت مصر أملا بعد أن شطب المجتمع المصرى كلمة « أمل » من قاموسه . يكفى مثلا أن توفيق الحكيم استمد شعار الجزء الثانى من (عودة الروح) من الكتاب الفرعونى (الموتى) . شعاراً يقول :

« انهض .. انهض يا أوزوريس . أنا ولدك حورس . جئت أعيد إليك الحياة . لم يزل لك قلبك الحقيق . قلبك الماضى » .

إنها إذن مصر .. إنه إذن مستقبل مصر .. هو الذى كان يشغل بال توفيق الحكيم عندما كتب روايته (عودة الروح) . إنه الأديب إذن — الحكيم فى حالتنا هذه — الذى تنبأ بالمستقبل قبل حدوثه . تنبأ بعودة الحياة لمجتمع تصور أن الموت قدره .

وأسأل توفيق الحكيم : هل تعتقد أن الأدب — والفن عموماً — قد أصبح عاجزاً عن التنبؤ بالمستقبل ؟ أنت مثلا قرأت مبكراً جداً — حينما كنت تلميذاً فى السنة الثانية الثانوية — للكاتب الإنجليزى هـ. ج. ويلز . قرأت له بالتحديد كتاباً عن السفر إلى القمر . وكان ذلك قبل أن يتقدم العلم ويقتحم طريق السفر إلى القمر . إنك شخصياً سبقت الزمن — ربما — فى التنبؤ لمصر بمستقبلها . وويلز هو نموذج آخر للأديب الذى سبق العلم فى زمانه إلى التنبؤ بالمستقبل والتنبيه له وبمحاولة تصويره . ولكننا نرى اليوم أن الأدب قد تقطعت أنفاسه .. وهو يحاول اللحاق بالعلم ، بعد أن كان يسبقه .. كان العلم يتقدم نحو هدف ، فيجد أن الأدب قد سبقه إلى هناك ووقف ينتظره . ونحن لا نرى ذلك الآن . فما هو تفسيرك ؟

فكر توفيق الحكيم لحظات قليلة . تراجع بظهره إلى مؤخرة كرسيه المتحرك – كرسى ضيق داخل حجرة واسعة .

أخيراً يرد الحكيم : فى الواقع أن مبادرة العلم اليوم فى الكشف عن إمكانيات المستقبل وإعطاء صورة عنه قد جعل الفن والأدب يفقدان فى هذا المجال الكثير من مبادراتهما فى تصور الغد وقيادة الناس إليه . ولذلك فنحن الآن فى حالة تخبط فى العالم كله . حالة تشاهدها فى البلاد المتحضرة بأوضح مما تشاهدها فى بلادنا . كل هذا أصبح نتيجة لأن الفن والأدب يجدان أنهما قد فقدا زمام المبادرة للعلم ، بمعنى أن العلم عندما يعطى الآن صورة للمستقبل فإنه لم يعد يجد الأدب فى انتظاره هناك كما تقول أنت . لا يجد أن الأدب قد سبقه إلى تجسيم صوت المستقبل . . إما فى خيال مستغرق كما فى الروايات الخيالية العلمية التى اتخذت مكان الرواية البوليسية فى إثارة الجماهير ، وإما فى وصف الهزة النفسية التى نتجت من زلزلة العلم لكثير من التقاليد والمعتقدات .

– إذن .. هل ترى أن الفن والأدب يكتفيان الآن بدور المفسر لما حدث .. دون أن يحاولا التنبؤ بما سيحدث ؟

رد الحكيم بسرعة ولكن بهدوء : شوف .. لقد تراجع الفن والأدب عن دور التنبؤ بالمستقبل لأنه لم يعد فى إمكانه أن يتحكم فى الحياة .. التى تتغير باستمرار بتغير النظرة العلمية . لقد أدت هذه النتيجة إلى أن يكون الفن معبراً عن هذه الزلزلة النفسية .. فاتجه أحياناً إلى زلزلة الأساليب الفنية التى يمتلكها ، وأصبح يهيم باحثاً عن وسائل جديدة للتعبير .. مثلما استطاع

العلم أن يغير التفكير العلمى . وأحياناً يلجأ الفن والأدب إلى إبراز هذا الاضطراب الداخلى الذى نجم عنه زلزلة العلم لكثير من المعتقدات . ومن هنا نشأ الأدب والفن الكئيب أو الأسود ، أو المتشائم مثلا . وحتى الآن فإن الفن ما زال يبحث عن طريقه وسط هذه الأنقاض .

– إذن .. ما هو الأمل ؟ إن الشعر مثلا كان يمسك فى الماضى بزمام القيادة الأدبية والفنية ، ولكنه عندما فقد الزمام لم يستعده بعد ذلك مطلقاً فهل ترى أن هناك أملا حاليًّا فى أن يعود زمام القيادة نحو المستقبل .. إلى الفن والأدب ؟

توفيق الحكيم يقطب جبينه . إنه يغرز يده اليمنى فى خده الأيمن متكئاً بذراعه على مسند كرسيه ، متراجعاً بجسمه مرة أخرى إلى الخلف ، ناظراً بعينه إلى بعيد .. إلى فراغ . ويرد توفيق الحكيم : « فى الواقع أنا لا أستطيع أن أحدد الآن ما هو الأمل. إن الفن والأدب يتعاملان مع النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية . هذا فى حد ذاته يجعل مهمة الفن والأدب أكثر صعوبة فى مثل هذا العالم المضطرب اللاهث خلف الاكتشافات العلمية السريعة والمثيرة . إن النفس البشرية بطيئة التغيير بالنسبة للتغييرات العلمية المحيطة بها . إن معتقدات الإنسان ومشاعره ما زالت هى نفسها التى وجدت حينما اعتقد أن الطيران هو آخر اختراعاته . ولكن ، عندما خرجت سفن الفضاء إلى القمر والكواكب الأخرى .. فإن الإنسان فوجئ بوضع جديد لم تتكيف معه بعد أوضاعه النفسية أو الاجتماعية أو الشعرية . من هنا أصبح الفن المعبر عن النفس البشرية واقعاً فى حيرة . إنه – من

ناحية — يتناول الإنسان بتكوينه القديم.. أما العلم — من ناحية أخرى — فقد جعل الإنسان شيئاً عجيباً وفى وضع جديد .. يستطيع معه أن ينظر إلى الكرة الأرضية من بعيد كأنها كرة معلقة فى الفضاء متدثرة بغمام أبيض. أصبح الإنسان يستطيع أن ينظر إلى أرضه من بعيد فى هذا الشكل، كذبابة تنظر إلى طبق غطيت محتوياته بالزبد الأبيض . فمن بعيد ، من الفضاء ، تبدو الأرض بلا حدود ولا فواصل .. مجرد كرة مرشوش عليها مسحوق أبيض اللون . .

« . . إن مثل هذا الإنسان .. الذى يرى أرضه وعالمه بهذا الشكل . . ما هى مشاعره الجديدة ؟ إنها لم تختلف فى نوعها عن مشاعره القديمة ، وإن كان من الجائز أن تختلف فى درجتها . ثم .، هذه الأرض التى تداخلت فيها القارات.. ما هى سياستها الجديدة ؟ إنها هى نفسها التى كانت موجودة منذ عهد نيوتن .. حينما كان العلم ما زال طفلا يحبو .

« . . إن هذا التناقض بين السياسة والمجتمع ، هذا التنافس على حكم الإنسان للإنسان ، هذا التنازع بين الدول وبعضها ، بين بعض التقاليد وبعضها الآخر ، بين بعض الأفراد وبعضها أيضاً .. كان حتى الآن يجرى تحت سماء لا نعرف عنها سوى أنها غطاء محكم علينا لا سبيل أمامنا إلى اجتيازه .

« . . ثم جاء العلم وغير بعض هذا كله . لقد رفع العلم الغطاء من فوقنا ، ولكنه لم يغير شيئاً — لا فى المجتمع ولا فى الأفراد — فكيف يستطيع الأدب والفن إذن أن تكون لهما القيادة فى هذا المضمار ؟ إن العلم غير

البيئة التى تحيط بالإنسان ، ولكنه لم يغير بعد الإنسان نفسه . ما زالت عواطف الإنسان وأفكاره هى هى ، أنانيته هى هى ، حبه للسيطرة وتمسكه بالتقاليد التافهة التى كانت سائدة منذ قرون مضت فى السياسة والاجتماع والاقتصاد .. كل هذا ما زال على ما كان عليه ... » .

هنا قاطعت توفيق الحكيم قائلا : إنها إذن أزمة يجتازها الفن والأدب .. ولا أريد أن أقول إنها عقدة نفسية بدأت تصيب الفن والأدب .. من العلم .

واصل توفيق الحكيم رده قائلا : نعم . أزمة . هذه هى الأزمة التى يعيش فيها الفن والأدب الآن . إن الفن مستمر فى تعقده من العلم الذى أخذ منه بالفعل زمام القيادة .

قلت : ولكنك ذكرت منذ لحظة أن العلم يغير البيئة ، ولكنه لم يغير بعد الإنسان نفسه . فهل تقع هذه التهمة يا ترى على العلم . . أو على الفن والأدب ؟

أجاب توفيق الحكيم : « هذا هو السؤال فعلا . السؤال هو .. هل يستطيع الإنسان أن يتغير ، ويغير ما بنفسه ، حتى يستطيع الفن أن يتغير هو أيضاً ؟ أو أن على الفن أن يسبق ويتغير .. لكى يمهد الطريق أمام الإنسان نفسه .. فى محاولته التكيف مع الظروف الجديدة ؟ السؤال هو من الذى يقع عليه زمام المبادرة : الإنسان .. أم الفن والأدب ؟

« . . وفيما يبدو لى ، فإن الفن والأدب قد تنبها إلى الأزمة المعاصرة فى حدودها هذه . لقد تنبه الفن إلى أنه هو الذى يتحمل مهمة تغيير

الإنسان فى هذه المرحلة . ولكن .. يغيره إلى أى صورة ؟ ما زال هذا سؤالا آخر ينبغى التنبيه إليه ، هل يقوم الفن والأدب بخلق قيم جديدة للإنسانية تتمشى مع الظروف الجديدة .. أو يكتفيا بمجرد تصحيح القيم القديمة ؟ إذا حسم الفنانون والأدباء هذه النقطة فربما يستعيد الأدب والفن زمام القيادة والخروج من هذه الأزمة . إن ما يزيد الأزمة صعوبة هو أن الصراع فيها يجرى بين عوامل كثيرة . . وأطراف كثيرة .

* * *

صراع . . ؟

هل ذكر توفيق الحكيم كلمة صراع حالا ؟

إذا كان قد فعل فإن هذه الكلمة نفسها هى فى الواقع المفتاح الرئيسى لفهم شخصيته هو . فالواقع أن شخصية توفيق الحكيم هى حصيلة صراع طويل جرى بينه من جهة ، وبين بيئته من جهة أخرى. صراع فى عقله بين الماضى والمستقبل ، وصراع فى حياته بين الأب والأم .

فى طفولة توفيق الحكيم صراع طويل بين الحياة والموت .لقد أصيب فى طفولته بأمراض متوالية . هو نفسه يقول عن ذلك : « . . كانت فترات الشفاء أندر من فترات المرض » . وبعد سنوات طويلة شفى الطفل توفيق الحكيم من الحمى التى لازمته . ولكن . . « .. داء آخر بدأ ينمو داخل عقلى : إنه القلق . لم أستطع منه فكاكاً طول عمرى . إنى فى حالة قلق دائم طول حياتى .. حتى عندما لا أجد مبرراً لأى قلق» .

وفى عقل توفيق الحكيم صراع بين الماضى والمستقبل . إن توفيق الحكيم

يحاول دائماً أن يكون فى انتظارنا هناك.. فى المستقبل . وعندما ينجح عمل من أعماله الأدبية فإنه لا يكرره .. لا .. الحكيم ليس من هذا النوع . إنه يترك نجاح الماضى .. ليقتحم مخاطر المستقبل . لقد حققت له رواية « الرباط المقدس » نجاحاً كبيراً .. ولكنه لم يكررها .. لقد نجحت أيضاً مسرحية « السلطان الحائر » .. ولكنه لم يكررها .. إنه يعلم بالضبط ماذا تريده الجماهير.. ولكنه لا يستسلم للجماهير . إنه بالطبع يكون سعيداً عندما يتذكر نجاح الماضى .. ولكنه يكون سعيداً أكثر حينما يحاول أن يكتشف المستقبل . فنان .

وفى شخصية توفيق الحكيم صراع آخر بين أمه وأبيه . صراع طبقى . أمه كانت غنية ، وأبوه فقيراً . كان وكيل نيابة — هذا صحيح — ولكنه كان أيضاً موظفاً بمرتب عشرة جنيهات شهريًّا . وعندما تم الزواج بين والد توفيق الحكيم ووالدته فإنه كان زواجاً نموذجيًّا بين الطبقة المتوسطة ، التى تريد أن تكون ثرية .. والطبقة الثرية ، التى تقاوم السقوط إلى الطبقة المتوسطة !

إن أم توفيق الحكيم كانت من أسرة تعمل بالبحر ، من الذين يسمون « البوغازية » . إن سحنة أمه وزرقة عينيها من بين دلائل أصلها التركى . ولم يرث توفيق الحكيم عنها زرقة العينين لأن « . . سحنة والدى الفلاح القمح كانت فيما يبدو قديرة على صبغ بحر أزرق بأكمله » ! كانت أمه ذات طبيعة متناقضة : « . . فيها جرأة وفيها خوف فى الوقت نفسه . جرأة على الناس وخوف على نفسها ». وأبوه كان ذا طبيعة متناقضة أيضاً: « . . كان

يستكثر ثمن فنجان قهوة فى غير ضرورة .. وينفق بتهور على البنائين والسماسرة لمشروع خيالى اقتنع به » !

إنه إذن صراع بين شخصيتين ، ونقطتى بداية مختلفتين . صراع يقول عنه توفيق الحكيم : « . . إنى سجين أشياء كثيرة أورثنى والدى إياها ، فيها الطيب وفيها الردىء . كما ورثت عن والدتى خيرها وشرها . فهى طيبة القلب ولكن فيها روح شر . . . غير أنها لا تعرف الخبث إطلاقاً ، فهى صريحة — صراحة متحدية أحياناً . ولا تطيق أن تخفى فى صدرها شيئاً . أما والدى فهو طيب نادر الشر ، لكنه كثير الخبث ، وقليل الصراحة . . وقد ورثت أنا من كل هذا بنسب متفاوتة » .

بل إن الكاتب العظيم عباس العقاد — رحمه الله — كتب مرة عن والد توفيق الحكيم . . نقلا عن المرحوم عبد العزيز فهمى . . يقول : « إن إسماعيل الحكيم كان يحب أن يبتدع له فى كل شىء . . حتى فى التدخين » !

* * *

وأسأل توفيق الحكيم : ما هى وظيفة الفن ؟

ويرد : الفن هو أداة الإنسانية لتأمل ملامحها ومعرفة نفسها .

أقول للحكيم : لو فحصنا تاريخ الأدب والفن . . لوجدنا نوعين من الأعمال والمؤلفين . فى بعض الحالات مثلا تكون حياة المؤلف أهم من أعماله الأدبية والفنية . إن « اعترافات جان جاك روسو » مثلا نموذج لذلك . إن حياته هو نفسه أصبحت أهم وأبقى عندنا من أعماله الأخرى .

وفى مقابل ذلك نجد أعمالا أخرى يختفى فيها المؤلف ، على حين تبقى أعماله . شكسبير مثلا . نحن لا نعرف من كان شكسبير .. ولا من كان هومر . لقد اختفى الفنان هنا داخل عمله ، وتراجعت حياته وشخصيته إلى الخلف تماماً . من هنا أريد أن أسألك .. أيهما تحرص على إعطائه أهمية أكثر : حياتك كعمل فنى ، أم أعمالك الفنية كانعكاس لحياتك ؟ إننى أنبهك هنا إلى أننى فى الواقع أستمتع تماماً بقراءة « يوميات نائب فى الأرياف » و « سجن العمر » .. مثلما أستمتع بقراءة « السلطان الحائر » و « عودة الروح » و« يا طالع الشجرة » . كلا النوعين من الأعمال يعطينى إحساساً بالفنان الذى أنتجهما .

لحظات صمت ثم يرد توفيق الحكيم : فى الواقع أننى كنت حريصاً فى الدرجة الأولى على إبراز الأعمال الفنية فقط دون محاولة التأثير على القارئ . لقد حرصت مثلا على أن تكون كل كتبى الأولى بغير مقدمات توضح مراميها ، مع أنها كانت فى أشد الحاجة إلى مقدمات تشرح اتجاهاتها . إننى لم أفعل ذلك لأننى كنت أريد من العمل الفنى أن يقدم نفسه . ولقد استمر هذا هو أسلوبى إلى أن جاء الوقت الذى فوجئت فيه بأن هناك دراسات أدبية يقوم بها باحثون بدون أن يتتبعوا الحياة الشخصية والظروف الذاتية للفنان أو المؤلف . . باعتبار أن هذا يساعدهم على فهم العمل الفنى نفسه . ونظراً لغياب مثل هذا المصدر بالنسبة لى . فقد بدأ بعض الدارسين يؤلف سيرة حياتى على حسب ما يتراءى لهم .. مجتهدين فى استنباط هذه السيرة الذاتية من مؤلفاتى القصصية وغيرها ، وخلطوا فى ذلك

بين الشخصية الروائية فى بعض الأعمال وبين حقيقة حياتى وظروفى كمؤلف .

عندئذ وجدت أنه لا مفر من أن أكتب بنفسى بعض جوانب حياتى توفيراً لجهد الباحثين وتوضيحاً دقيقاً لبعض مراحل حياتى التى تتصل مباشرة بأعمالى الأدبية أو الفنية . من هنا أصدرت كتاب « زهرة العمر » .

وعندما دخلت مرحلة الكهولة ، أردت أن أبحث فى طبيعة نفسى ، ومسئولية هذه الطبيعة عن توجيهى الأدبى والفنى ، باعتبار أن الطبع نفسه له دور أساسى فى توجيه الحياة وتكييف شكلها . من هنا أصدرت كتاباً آخر فى هذا الاتجاه هو « سجن العمر » .

هذان هما الكتابان اللذان يمسان حياتى الشخصية بشكل مباشر . إن كتابتى لهما كان عملا اضطراريّاً . ولو لم يكن هناك من يبحث فى الحياة الشخصية للمؤلف كعامل من عوامل الدراسة الأدبية .. لما فكرت فى الاهتمام بمثل هذا الجانب أو الكتابة فيه .

ومن ناحية أخرى فإننى وجدت أنه من الأسهل بالنسبة لمؤلفاتى الأدبية التالية أن من المفيد أن أساعد القارئ والباحث فى تلمس الاتجاهات الأدبية فى العمل الفنى ، ومن ثم رأيت أن أصدر مع هذه المؤلفات تعقيبات سريعة قد تكون مفيدة فى توضيح بعض خطوطها . إننى لم أجد هنا الحرج الذى كنت أتجنبه فى أعمالى الأدبية الأولى . لأننى فى الأعمال الأولى كنت حريصاً على أن يكون العمل الفنى نفسه هو الذى يكشف عن اتجاهى . أما وقد أصبح اتجاهى معروفاً ومألوفاً لكثير من القراء والباحثين ، فلم يعد

هناك سبب يمنعنى من تقديم إيضاحات لهذه الأعمال .

قلت : وهل ترى هذه الكتابة المباشرة – سواء كتابتى سجن العمر أو زهرة العمر أو توضيحاتك فى بعض أعمالك الفنية .. هل تراها مفيدة ؟

– لا أدرى . إن هذا متروك لغيرى .

قلت : طيب .. بصفة عامة ، هل معرفة الحياة الشخصية للفنان تساعد على تفهم أعماله الفنية ؟

– أنا شخصياً عندما أقرأ للآخرين فإننى أحاول دائماً أن أركز اهتمامى فى العمل الفنى ذاته ، لأنه هو المعول عليه فى معرفة القيمة الحقيقية للفنان ولم يحدث فى قراءاتى الفنية أن قرأت حياة كاتب أو فنان قبل أن أقرأ أعماله . العكس هو الصحيح . إن معرفتى لشكسبير أو موليير أو بيتهوفن أو الجاحظ مثلا كانت تبدأ دائماً بمعرفة أعمالهم وتذوقها ودراسة وسائل عبقريتهم فيها . ولم أتجه إلى معرفة شىء عن حياتهم الشخصية إلا فيما بعد ، عندما اجتزت مرحلة الاتصال بأعمالهم الفنية . إلى الاهتمام بحياتهم الشخصية .

– حسناً .. عندما بدأت تهتم بحياتهم الشخصية .. هل وجدت معرفتك لها تساعدك فى فهمك لهم ؟

– بالنسبة لى كانت المسألة حب استطلاع ومتعة شخصية ، ولكن الذى أفادنى حقاً وكان محل اهتمامى الرئيسى هو التأمل الطويل لأسلوب عملهم الفنى . لأن دراستى لهذه الأساليب هى التى تعطينى بعض أسرار المهنة . . التى أتطلع إلى معرفتها . والواقع أن الفنان – أى فنان – له أسلوبه فى خلق العمل الفنى . إن تأمل الكيفية التى يجمع بها الفنان عناصر

متعددة يخلق منها عملا واحداً متناسقاً حيًّا نابضاً يشع بالفكر والجمال ، هو بذاته مجهود يجب أن يحرص عليه كل من اختار لنفسه السير فى طريق الفن . . سواء كان فناناً ناضجاً .. أو مجرد مبتدئ .

وأسأل توفيق الحكيم : بمناسبة المبتدئين ، أريد أن أبدأ معك من البداية ، مثلا — كيف بدأت تكتب ؟ وهل كانت الكتابة عملية سهلة بالنسبة لك ؟

أجاب الفنان الحكيم : لا . لم تكن عملية سهلة مطلقاً . لقد مزقت كثيراً من الأوراق وكتبت العمل الواحد بكثير من الأشكال قبل أن أصل إلى أسلوب فنى يرضينى . إن هذا الجهد الطويل الذى بذلته بحثاً عن أسلوب فنى أصابنى أحياناً كثيرة باليأس من إمكانية الوصول إلى نتيجة . ولكن ، عندما كاد هذا اليأس أن يصل إلى نهايته ، تفجر أمامى فجأة بصيص أمل تمثل فى فكرة واحدة هى : يجب أن أترك البحث عن أسلوب خاص كهدف . يجب أن أترك نفسى على طبيعتها . يجب أن أكتب مثلما أسير ، مثلما أمشى ، فى تلك اللحظة تذكرت أننا نتعلم المشى بالطريقة نفسها . إننا نتعثر دائماً فى أول الطريق . إننا نظل نحبو فى طفولتنا مدة طويلة ، ثم نحاول أن نقلد آباءنا ، نحاول أن نمشى بمفردنا . وإذا لم نستطع ، فإننا نستند إلى كرسى أو إلى حائط . خطوة وخطوتين ثم نقع . وعندما نقع فإننا ننهض لنحاول المشى من جديد .

إننا .. كأطفال .. عندما كنا نصل إلى هذا الدرجة فإن هذا فى حد ذاته كان يسبب لنا فرحة كبرى . يمكنك أن تلاحظ هذه الفرحة

عند أى طفل لحظة نجاحه فى السير بمفرده على قدميه . إنه فى البداية لا يكاد يصدق أنه يستطيع السير بمفرده ، ومن ثم فإنه يصبح كالعفريت لا يكف عن السير فى كل مكان . هكذا تبدأ المسألة إلى أن يصبح المشى بعد ذلك شيئاً عادياً طبعياً . . هل أنت تفكر الآن فى الطريقة التى تمشى بها ؟

قلت : أنا أستمع إليك . . .

— « إن ما أريد أن أقوله هو أن أسلوب الكاتب أو الفنان يماثل طريقته فى المشى . لا أحد منا يلاحظ كيف وصل إلى طريقته الحالية فى المشى على قدميه . ذلك لأن لكل إنسان طريقة خاصة فى المشى لم يكن يستطيع أن يفكر فيها سلفاً أو يخطط لها مقدماً . المسألة نفسها فى الأسلوب الفنى . كل فنان يبدأ بالتعثر والسقوط والمحاولة إلى حد اليأس ، ولكنه عندما يجتاز هذه المرحلة فإن أسلوبه الفنى يصبح كطريقة مشيته : شىء يأتى من تلقاء نفسه وبغير تفكير سابق فيه . ويصبح الفنان فيما بعد متميزاً بأسلوبه الفنى مثلما هو متميز كإنسان بطريقة مشيه .

وعلى العكس من ذلك ، عندما يحاول الإنسان أن يقلد إنساناً غيره فى طريقة مشيته فإنه سيصبح مثيراً للسخرية . وعندما يحاول فنان أن يقلد غيره فى أسلوبه فإنه سيصبح أيضاً مثيراً للسخرية ، مع أن كلا من المشى والأسلوب يكون التقليد هو بدايتهما الطبيعية . الطفل يبدأ بتأمل والديه : كيف يمشيان . ثم يحاول أن يقلدهما . أخفق مرة ونجح مرة . هذا طبيعى . بعد مرات من المحاولة نجح فى أن يمشى وحده . عندما مشى أصبح

بطريقة خاصة لا يقلد فيها أبويه . هكذا الفنان . يبدأ يتأمل الأسلوب الفنى للآخرين . محاولة للتقليد فى البداية . مرة يخفق ومرة ينجح . بعد أن يصيبه اليأس يصل إلى أسلوب خاص يميزه . أما إذا لم يتجاوز مرحلة التقليد فإنه لن يكون فناناً على الإطلاق » .

* * *

كلام معقول .

إن توفيق الحكيم لخص فى السطور السابقة المشكلة الأساسية التى يواجهها كل فنان مبتدئ مشكلة الأسلوب . إن الكاتب الفرنسى « فرانسوا مورياك » الحائز على جائزة نوبل كان يقول دائماً : « كل روائى يجب عليه أن يخترع أسلوبه الخاص وتكنيكه الخاص . إن كل رواية هى مثل كوكب آخر . . له قوانينه الخاصة مثلما له نباتاته وحيواناته الخاصة » .

وأسأل توفيق الحكيم : إلى متى ظلت تواجهك مشكلة البحث عن أسلوب خاص ؟

وهو يرد : ظلت المشكلة تواجهنى إلى ما قبل نشر أعمالى الأولى

قلت : تقصد قبل كتابتك لمسرحية « الضيف الثقيل » ؟ لقد كانت « الضيف الثقيل » أول مسرحية لك ، بأعتبار أنك كتبتها سنة ١٩١٩ ، وأنها كانت تدور حول الاحتلال البريطانى لمصر فى ذلك الوقت . . ولكننى لا أعتقد أنك تعتبر هذه المسرحية بداية حقيقية لأعمالك الفنية والأدبية . . .

ــ نعم .. لا أعتبرها بداية حقيقية لى. لقد فقدت نص هذه التمثيلية منذ وقت طويل مضى ، وأتذكر أنها كانت ترمز إلى إقامة ذلك الضيف الثقيل فى بلادنا بدون دعوة منا ، وبدون رغبة منه فى الانصراف عنا . وهو الاحتلال الأجنبى . .

وبصفة عامة فإن تلك التمثيلية كانت تمثل مرحلة من مراحل حياتى الفنية . مرحلة كان الهدف فيها هو إجادة العرض المسرحى من حيث هو فن قائم بذاته . . . بصرف النظر عن الأفكار التى يتضمنها . وكانت تلك المرحلة متسمة بنوع المسرح الموجود وقتئذ .. وبمراعاة إمكانية العرض الناجح من حيث تقبل الجمهور لها . مرحلة كان كل انتباهى فيها موجهاً نحو معرفة أسرار العرض المسرحى ومحاولة إجادته .

إن تلك المرحلة انتهت فى سنة ١٩٢٥ ، بعد أن كتبت عدة مسرحيات مثلت على مسرح عكاشة ، منها « العريس » و« خاتم سليمان » و « المرأة الجديدة » وأوبريت « على بابا » .

بعد ذلك سافرت إلى أوربا لأدرس فى فرنسا . وهناك بدأ ينمو اتصالى بالحضارة الغربية فى مختلف نواحيها . ومن هناك أصبح الفن فى نظرى وعاء كبيراً يجب أن نصب فيه خلاصة الحضارة من أفكار أدبية وفنية . أصبحت أومن بأن الفن له مهمة أكبر من مهمة العرض المسرحى . . . أى أن الفن يجب أن يعكس النشاط العقلى الإنسانى فى تطوراته الحضارية .

ولقد دخلت بذلك مرحلة ثانية فى حياتى الفنية . مرحلة صعبة

اقتضت دراسات واسعة للمنابع الحضارية المختلفة التى عرفتها الإنسانية . مرحلة تمثل إنتاجى الروائى فيها بقصة « عودة الروح » ، وإنتاجى المسرحى بمسرحيتى « أهل الكهف » و « شهر زاد » .

قلت لتوفيق الحكيم : لنقف الآن عند هذه المرحلة . . . فلدى سؤال معين يهمنى هنا . هذا هو : هل كنت تنشر كل ما تكتبه خلال السنوات العشر الأولى من حياتك الفنية ؟

— لا . . !

— كم بالتقريب كانت نسبة ما تنشره من كتاباتك ؟

— لم يكن ينشر لى أكثر من ٤٠ ٪ مما أكتبه .

— . . . والباقى ؟

— كنت أعتبره محاولات فاشلة . كنت حريصاً على أن أكون أنا . . الرقيب الأول على نفسى وإنتاجى . ومن ثم كنت حريصاً على تقييم إنتاجى دائماً ، الناجح فيه والفاشل .

* * *

ها هو ذا توفيق الحكيم يقودنى بيده إلى الإخفاق فى حياته . فالواقع أن الفـــارق بسيط للغاية بين إنسان وآخر . كلاهما يخفق ولكن الإخفاق بالنسبة للأول يصبح حافزاً لليأس ، وبالنسبة للثانى يصبح حافزاً على المحاولة من جديد . وتوفيق الحكيم فنان . بل ربما كان هو من طلائع الذين اكتسبوا لكلمتى فنان وأديب — احتراماً فى مجتمعنا الحديث .

مع ذلك ، فإن توفيق الحكيم لم يصل إلى ما وصل إليه بخبطة حظ .

لقد ذاق مرارة الإخفاق كثيراً فى حياته، بل إن صدمة الإخفاق واجهت توفيق الحكيم فى سن مبكرة من حياته .

مثلا . . توفيق الحكيم أخفق فى حياته الدراسية أربع مرات . مرة عندما رسب فى السنة الأولى الابتدائية : ورسب أيضاً فى امتحان النقل إلى السنة الثانية الثانوية . رسوب قبيح — هذا تعبيره هو . ثم رسب مرة ثالثة فى امتحان النقل إلى السنة الثانية بمدرسة الحقوق . وكان رسوبه فى مواد عديدة من بينها اللغة الفرنسية . وأخفق توفيق الحكيم مرة رابعة عندما ذهب إلى فرنسا بغية الحصول على الدكتوراه وعاد بغيرها . .

نحن إذن خسرنا تلميذاً ناجحاً ، وكسبنا فناناً كبيراً . ولكن وضع المسألة بهذا الشكل يكون مضللا للغاية . فتوفيق الحكيم لديه قدرة على تعويض كل فشل يصيبه ، بمضاعفة مجهوده فى المرة الثانية . ومع أن شغفه بالفن بدأ فى فترة مبكرة من حياته ، إلا أنه لم يستخدمه عذراً لمزيد من الفشل .

وأسأل توفيق الحكيم : هل تستطيع أن تذكر لى بالضبط . . متى وكيف حدث أول انفعال لك بالجمال الفنى ؟

وهو يرد : ربما لا أستطيع أن أذكر هذا تماماً . لعل أول مظهر من مظاهر انفعالى بالجمال الفنى اتخذ صورة تذوق التلاوة القرآنية الجميلة والاستمتاع بها من شيخ يجيدها يوم كنت تلميذاً بالكتاب .

ثم شعرت بالفن فى صورة أخرى بعد ذلك . . مولد سيدى إبراهيم الدسوقى . . حيث عمل والدى فى دسوق فترة . انفعلت بالذات بالموكب

الذى كان يمر من تحت نوافذنا بمناسبة المولد . كان نوعاً من الكرنفال الساذج .. ولكن تأثيره على نفسى فى تلك السن كان عجيباً .

على أن اهتمامى الحقيقى بالفن — فى صورته المباشرة — حدث من شيئين . فأولا يوم جاءت إلى مدينة دسوق وقتئذ جوقة الشيخ سلامه حجازى ، أو لعلها كانت إحدى الفرق التى كانت تقلده وتطوف برواياته وتتخذ اسمه فى تنقلاتها بالأقاليم . يومها نصبوا لتلك الفرقة مسرحاً من الخشب فى إحدى رحبات البلد وارتدى أفراد الجوقة ملابس « شعراء الغرام » أى روميو وجولييت لشيكسبير . طبعاً كانت التمثيلية مطعمة بالقصائد والألحان التى لا تخطر لشيكسبير على بال !!

والشىء الثانى الذى أثار اهتمامى بالفن حقيقة هو « الأسطى حميدة » . كانت أسرتى قد عرفت جماعة من . «عوالم » الأفراح بمناسبة زفاف أحد أقربائنا . وبعد الفرح عقدت أواصر المعرفة بين والدتى وجدتى وبين الأسطى حميدة العوادة المطربة رئيسة العوالم . بعدها كانت الأسطى حميدة تتردد كثيراً على منزلنا — وأحياناً تبيت عندنا . كان صوتها يشجينى وحفظت كثيراً من الأغانى التى كانت تغنيها . . .

— هل تتذكر كيف بدأ اهتمامك بقراءة الأدب العربى ؟

— نعم إن الفضل فى هذا يرجع إلى مدرس للغة العربية عندما كنت طالباً فى السنة الأولى الثانوية . كان معمماً ، ولكنه كان أيضاً عصرى التفكير . لقد حبب هذا الأستاذ الأدب العربى إلينا وشجعنا على أن نكتب على طبيعتنا . كان يقول : إن خير البيان ما لا يتكلف فيه البيان .

— هل تؤمن بذلك الآن ؟

— نعم . إننى أؤمن بأن أحسن أسلوب فنى هو الذى يكون طبيعياً.
الشعار عندى « كن طبيعياً . . تجد نفسك » .

قلت لتوفيق الحكيم : هل وجدت نفسك عندما بدأت تكتب مسرحيات اللامعقول؟ أقصد مرحلتك الفنية الثالثة التى بدأتها بكتابة « ياطالع الشجرة »؟

وضحك توفيق الحكيم لحظات قصيرة . إنه يضحك بالفصحى ! لحظة وأخرى ثم يقول : عندما فكرت فى كتابة « ياطالع الشجرة » منذ سنوات قليلة كان العالم قد بدأ ينشغل بالبحث عن أساليب جديدة — خصوصاً فى أوربا لقد أصبحت الحضارة هناك معقدة ومتشعبة ، وأصابها نوع من الملل . . جعل الفنانين والأدباء يعيشون فى دوامة البحث عن أساليب وقوالب جديدة لفنهم . وقد رأيت فى بادئ الأمر أن مثل هذه الحمى فى البحث عن أسلوب جديد هو نوع من المرض العابر نتج عن فوران المجتمع الحضارى بالمشاكل الاجتماعيـــة والعلمية . . خصوصاً بعد القفزات الهائلة التى قام بها العلم الحديث ومحاولة خروجه إلى الفضاء الخارجى . لقد أصيب الفن والأدب بعدها بحالة عدم . حالة جعلت الفن والأدب يصابان — كما قلت لك — بحمى البحث عن أشكال جديدة وأساليب جديدة للتعبير الفنى .

لكل ذلك رأيت وقتئذ أن أبحث فى إمكان استخراج جديد من بعض تراثنا الشعبى أو تفكيرنا الذاتى مما يمكن أن أكيفه ليلائم أسلوباً من تلك الأساليب التى تتجه إلى الجديد . . كل هذا بشرط أن يكون فى

حدود كسر الجمود الفنى ، وليس الرغبة فى الدوران فى دوامة الحمى التجديدية الأوربية. المسألة الأساسية أننا نريد أن نتقن الأسلوب التقليدى ونصل فيه إلى درجة كبرى من الإتقان بأعتباره الأسلوب الطبيعى الذى نصب فيه أفكارنا وأتجاهاتنا وحياتنا . ولكن – إلى جانب ذلك – يجب أن نضع فى اعتبارنا أيضاً أن الجمود مكروه هو الآخر . هناك إذن عملية ملاءمة يجب أن تحدث بين الاستقرار فى الأسلوب الطبيعى ، وبين منع هذا الاستقرار من أن يتحول إلى جمود . هذه الملاءمة هى ما ينبغى أن نفكر فيه وأن نلاحظه وأن نحاول أن نصل به إلى الوضع الصحى فى إنتاجنا الفنى والأدبى .

إن « ياطالع الشجرة » كانت بداية المرحلة الثالثة التى مررت بها فنياً ، والتى أصدرت منها بعدها « طعام لكل فم » و « رحلة سير » و « رحلة قطار » .

– لماذا إذن لم تستمر فى هذا الاتجاه ؟

– «لقد وقفت عند هذا الحد لأنى لم أرغب فى التشجيع على التوغل فى الالتفات إلى موضات الأسلوب و بدع التجديد لمجرد التجديد ، حتى لاينتهى بنا الأمر إلى تلك الحمى التى تعانيها أوربا اليوم فى الفنون ، والتى أخذت تنحسر بدورها وتتراجع ، حتى فى أوربا نفسها . لقد بدأ الفنانون هناك يلتقطون أنفاسهم ، ويعودون إلى الإنتاج الطبيعى ، مع الاحتفاظ ببعض مكتسبات حالة الحمى . لأن كل حمى لها أيضاً نواحيها المفيدة فى تحريك الجسم » .

الحمى . . ؟

لا شك أن هذه الكلمة لها مدلول سيئ للغاية فى نفس توفيق الحكيم . إن الحمى لازمت الحكيم فى طفولته سنوات عديدة سببت له متاعب صحية عديدة فى تلك السنوات المبكرة من طفولته .

ولكنه عندما يتكلم عن الحمى فى الأدب فإنه يتكلم فى الواقع نوع من «تجارب المعمل» التى أجراها الأدباء والفنانون فى السنوات الأخيرة .

إن توفيق الحكيم عندما يتكلم فإنه يستخدم أشياء كثيرة فى توضيح آرائه . عيناه تنظران إلى قلمى ، وصوته يكرر المعنى لأذنى ، ويده تؤكد الحديث !

هذا إذن هو توفيق الحكيم : الشارب الأبيض فى وجهه . . البيريه الأزرق فوق رأسه . العصا بجانبه . ديكور . عندما يتحدث فإن كرسيه يتراجع به إلى الخلف . . وأصابع يده اليمنى تأخذ مكانها على خده الأيمن مرتكزاً بساعده على مسند الكرسى متطلعاً بعينيه إلى الأمام أحياناً . العين اليسرى قوية على غير العادة . اليمنى ضعيفة . آثار مرض من أيام الطفولة .

وتوفيق الحكيم لايدخن ، لايسكر ، لا يسهر . . يأكل دون إفراط يمشى أحياناً . كل شىء لديه يتم فى حدود . عادات ورثها عن أبيه .

وهو لا يحمل ساعة فى يده . فى الواقع لم يحمل ساعة مطلقاً طوال حياته . هذه واحدة من عادات قليلة لم يرثها عن أبيه . كان أبوه يحمل فى جيبه ساعة معدنية رخيصة عتيقة يؤخرها دائماً عشر دقائق . فإذا

سئل عن الحكمة فى ذلك قال : لكى يكون عندى دائماً عشر دقائق مدخرة للطوارئ !!

ومكتب توفيق الحكيم نظيف تماماً . لا توجد عليه سوى نسخة من آخر مؤلفات نجيب محفوظ كتب عليها المؤلف « إلى العبقرى الفنان توفيق الحكيم أهدى هذا الكتاب » . خلف المكتب بمتر واحد يوجد دولاب مقفول يحتفظ فيه الحكيم بمجموعة كتبه. لاحظ أن الدولاب مقفول ! ووجه توفيق الحكيم يبدو أكثر نحافة مما هو فى معظم الصور المطبوعة . إنه فى الواقع وجه معبر وصادق .

والمناقشة مع توفيق الحكيم هى أمر ممتع حقاً ، بشرط ألا تكون المناقشة للنشر . فعلى الرغم من أنه رجل ودود وصديق فى أسلوبه . . فإن توفيق الحكيم لديه أسلوب فى تقييمك ومناقشتك خلال المقابلات الأولى . . بحيث تحس أنك إذا لم تكتب ما يعجبه هو فإنه سيطرحك أرضاً !!

وعلى الرغم من أنه متسامح جداً ، وديمقراطى للغاية مع أبطال قصصه ورواياته حينما يتحاورون معاً على صفحات الكتب .. فإنه كثيراً ما سحب هذه الديمقراطية كحق أدنى من حقوق محدثه . . خصوصاً إذا كان صحفياً !

* * *

وأسأل توفيق الحكيم : هل تؤمن بالديمقراطية ؟ إن من يقرأ كتبك السياسية يجد أنك توجه إليها لوماً ونقداً عنيفين . أليس كذلك ؟

ويرد الحكيم : أنت طبعاً تقصد آرائى التى أذعتها سنة ١٩٣٨ ونشرتها فى كتاب « شجرة الحكم » . . هيه . . المسألة أننى كنت أرى

أن النظام البرلمانى فى مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام الصالحين ، ليس هذا إذن نقداً للديمقراطية ، إنه نقد للطريقة التى طبقت بها فى مصر فى تلك الفترة . والدليل على ذلك قولى فى مقدمة « شجرة الحكم » : إن الانتخاب على عيوبه هو الوسيلة التى لابد منها ما دام أفراد الشعب هم أصحاب الرأى فى تنصيب حكامهم .

سألت توفيق الحكيم : ما هى الحرية ؟

ــ هى حق الاختيار .

ــ لماذا اخترت لنفسك ألا تنضم لحزب أو جماعة سياسية طوال حياتك . . . ؟

ــ المسألة بسيطة للغاية .. إن تكوين الأحزاب فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ على ذلك النحو الذى حدث لم يسمح للمفكرين والمثقفين الحقيقيين إلا بالمراكز الثانوية التى ليس لها حق التوجيه .. من هنا ضعف الدور الفكرى والاجتماعى لتلك الأحزاب ، واقتصر نشاطها على الجانب السياسى . كان الكاتب المفكر المثقف فى نظر كل حزب هو فى الأغلب مجرد قلم يستأجره الحزب للدفاع عن وجهة نظره ، والهجوم على خصومه . وكان هذا ما نفرنى وأبعدنى عن تلك الأحزاب ، وما جعلنى أقف ضدها جميعاً . كان هذا هو موقفى . . ما رأيك ؟

ــ رأيى أن الكاتب أو الفنان عندما يضطر إلى توقيع الهدنة مع واقع مريض لايؤمن به .. عندما يتم استئجاره للتعبير عن وجهة نظر فإنه نوعاً آخر من البغاء والدعارة . بغاء متنكر فى ثوب أدب ، ودعارة مستترة أكثر

خطورة من الدعارة الصريحة .. ولكن هذا شيء، وموقفك أنت شيء آخر !

ــ حسناً . . كان هذا هو الوضع فى تلك الفترة التى أصدرت عنها كتابى « شجرة الحكم » و « حمارى قال لى » . إن معظم الكتاب كانوا ملحقين بالصحف الحزبية . . وكان من المسائل المثيرة للمتاعب أن تحاول الاستقلال برأيك . .

قلت لتوفيق الحكيم :

. . ولكننى أختلف معك من البداية بالنسبة لحكاية « معظم الكتاب » هذه . . . وبالنسبة لهذا الحكم العام الذى تطلقه . . لأن الكاتب والفنان يجب ألا يتلمس لنفسه الأعذار من أجل عدم اتخاذ موقف . على أى حال . . . فلنغير الموضوع لأننى أريد أن أسألك : ما هى شروط العمل الفنى ؟

ــ شرطان : التعبير . . والتفسير . .

ــ ما هو التعبير ؟

ــ هو الخلق .

ــ . . والتفسير ؟

ــ هو معنى الخلق .

ــ لابد من الشرطين ؟

ــ طبعاً . فالفنان عندما يخلق .. إنما يعبر عن موهبة الخلق الكامنة فيه . وهذا هو ما يجعله فناناً . ولكنه أحياناً يريد أن يضيف شيئاً آخر إلى الخلق الفنى .. هو أن يجيء هذا الخلق مفسراً لمعنى من معانى الحقيقة

أو أن يدل على موقف معين من الحياة والمجتمع .

ــ ماذا أردت أن تعبر عنه فى رواية « عودة الروح » مثلا ؟

ــ لقد أردت أن تكون « عودة الروح » وثيقة لشعور بأكثر مما أردت أن أجعلها سجلا لتاريخ . شعور شاب صغير فى وسط مرحلة خطيرة لبـــلاده . ذلك أن رأيى فى الفن هو أن يترك تسجيل التاريخ للمؤرخين . . لأن هناك شيئاً آخر لا يستطيعه غير الفن . . هو بعث الانطباع وإبراز الشعور .

ــ أنت تذكرنى بكلمات قالها الكاتب الأمريكى هنرى ببلو حينما قال إن الكاتب هو إنسان بشراع .. يعرف كيف يلتقط تيارات الهواء . وسؤالى هو : هل كنت تحس حينما كتبت « عودة الروح » أنك تتنبأ بالمستقبل ؟

ــ كنت أحاول . .

ــ هل تعلم أن هذه القصة تركت بصمات لا تنسى على تفكير أكثر من جيل شاب فى مصر . . الأمر الذى يكفيك أنك حققته كفنان .

ــ أشكرك .

ــ ماهى عوامل نجاحك كفنان ؟

ــ لا أعتقد أننى نجحت فى شىء ، لا أعتقد أننى رجل ناجح . أعتقد فقط أننى رجل محاول .

ــ هذا فى حد ذاته سبب من أسباب النجاح . ما هى الأسباب الأخرى ؟

— . . . . .

— دعني أغير السؤال : ما هى أسباب نجاح أى فنان ؟

— الإخلاص والصدق والإصرار . إن الإخلاص معناه أن يكون الفنان جاداً فى التحضير والإعداد والدراسة اللازمة لإتقان فنه . الصدق هو أن يكون صادقاً فى تحديد مقدرته ومقدرة غيره ، ألا يحاول التدليس على نفسه وعلى غيره والظهور بغير حقيقة فنه . الإصرار هو ألا تقف أى عقبة فى سبيل استمرار كفاحه من أجل فنه .

ومن المفهوم أن هذا كله يتم بغير الالتفات إلى إغراء جانبي غير الفن ، إغراء مادى أو معنوى مثلا . أنا مثلا لم أهتم مطلقاً بكم ليلة تستمر هذه المسرحية على المسرح وكم من الناس سيصفقون لها . .

— وماذا يفيد فى ذلك . . ألست تكتب للناس فى النهاية ؟

— طبعاً . ولكن أقصد أن الفنان ساعة الخلق لا يجب أن يضع فى اعتباره أى شيء آخر غير الفن . أما بعد أن ينتهى العمل الفنى فله أن يهتم بالنتيجة . أليس من الطبيعى أن يسعد كل إنسان بالنجاح ويتكدر بالإخفاق ؟ هذا طبيعى . ولكن النجاح الجماهيرى مثلا — على الأقل من وجهة نظرى — ليس واحداً من مواصفات المسرحية الناجحة . .

— إذن . . ما هى مواصفات المسرحية الناجحة ؟

— هذه هى مشكلة المشاكل — ليس فى مصر وحدها ، ولكن فى العالم كله . لقد شكا مديرو المسارح فى العالم كله كثيراً من عدم استطاعتهم التحكم فى نجاح المسرحية أو إخفاقها . فكثيراً ما يحدث أن تستوف

مسرحية كل الشروط الشكلية للنجاح . . ومع ذلك لا تنجح . والعكس . خذ مثلا مسرحية « فى انتظار جودو » لبيكيت . لقد ظلت ترفض من جميع المسارح ست سنوات ، إلى أن غامر مخرج فنان بإخراجها . فتلقت المسرحية لعنات المشاهدين وانصرافهم فى شهورها الأولى ثم نجاحاً ساحقاً فى شهورها الثانية .

وعلى عكس ذلك أذكر مسرحية أخرى اعتقد مديرو المسارح أنها مستوفية بجميع عناصر النجاح الواسع ، فإذا بها لا تمكث أكثر من أيام . . هذه المسرحية اسمها . . . . آه دعنى أتذكر . . . . أسمها . .

ــ لا يهم . . إن نسيانك لاسمها هو علامة أخرى من علامات إخفاقها !

ــ المهم . . أن مواصفات والنجاح الإخفاق فى المسرح لا يمكن التنبؤ بها . ولكن هناك علامات متعارف عليها فى الرواية الناجحة ، وهى أن يكون فيها ما يثير الجماهير سواء من حيث موضوعها أو من حيث مواقفها . وهناك من المؤلفين من تخصص فى دراسة هذه المواقف المثيرة التى تجذب الجماهير . ولكن الخطورة هنا أن المؤلف كثيراً ما يكون عبداً لمواصفات النجاح ، مما يقيده ويجعله أسير نجاحه ، فلا يخرج منه ولا ينطلق إلى محيط الابتكار والخلق الجديد . لأن الابتكار هو فى حد ذاته مغامرة ومخاطرة كمن يركب البحار المجهولة . . . لا يدرى فى أى شاطىء سيرسو . . فإما أن يضيع ويتوه . . . وإما أن يكتشف قارة جديدة مجهولة . .

ـ أعتقد أنك واحد من القلائل الذين حرصوا دائماً على التجديد والتطور المستمر . إننى أحياناً أتصورك أكثر شباباً من أى شاب . وأعتقد أيضاً أن هذا سر نجاحك الفنى .

ـ ما زلت أقول إننى رجل محاول . . ولست رجلا ناجحاً . . !

ـ هل صادفتك أية مشكلة فنية فى إحدى رواياتك أو مسرحياتك ؟

ـ دائماً ، هناك مشكلة فنية تواجهنى فى كل رواية أو مسرحية . السبب هو أننى أحاول دائماً ألا أكرر ما أفعل . إن ما يشغلنى دائماً ليس الموضوع . . . ولكن ما يتعبنى هو كيف يكتب الموضوع . فى كثير من الأحيان أكف عن كتابة موضوع جديد لم أتمكن بعد من الاهتداء إلى طريقة جديدة فى إبرازه . فالمشكلة عندى إذن هى فى الشكل الذى أضع فيه المضمون . هذه هى مشكلة الفن . إن المضمون لم يكن أبداً مشكلة فنية لأنه ملك لجميع الأدوات من المقالة إلى الكتاب . ولكن هذا المضمون إذا انتقل إلى الفنان فإن مشكلته هى الشكل الفنى . ولا يكفى أن نقول قالب الرواية أو قالب المسرحية . هناك أسئلة أخرى كثيرة تصادفنى وهى أنه بعد أن تختار القالب فهناك أيضاً مائة أسلوب تنتمى إلى هذا القالب . ما هو إذن الأسلوب المناسب للموضوع المناسب . . تلك هى المشكلة . إنها مشكلتى فى كل مرة .

ـ هل حدث لك مرة أن وصفت موقفاً لم تكن لك أية خبرة شخصية به . . وبمعنى آخر .. هل يحتاج الفنان إلى الخبرة الشخصية لكى يكون صادقاً فيما يكتبه ؟

ـــ ليس ضرورياً. يكفى أن تكون المشاعر حقيقية وصادقة ويمكن تجسيدها . فعند تلاقى شخصيتين مثلا تصطدم بينهما مشاعر معينة . لابد للفنان هنا من أن يكون على وعى تام ومعرفة أكيدة بهذه المشاعر . عليه أن يستخرج من مخزن عاطفته وتجاربه الشعورية ما يناسب هذه المواقف . وفى أحيان كثيرة يستطيع الفنان أن يشاهد أو يعيش تجربة ـــ ولتكن صغيرة جداً ـــ ولكنها كافية لأن تكون ركيزة لعمل فنى .

مثلا . . مسرحية « مصير صرصار » . . إننى نشرتها منذ وقت طويل . . . كنت قبلها قد رأيت بنفسى صرصاراً حياً ملقى فى بانيو الحمام يحاول الخروج منه ولا يستطيع لملاسة الجدران . ومكثت أكثر من نصف ساعة أراقب جهاده وكفاحه المضنى والمميت فى سبيل الخروج من البانيو . ولقد تعبت أنا من مراقبته . . ولكنه هو لم يتعب من الأمل فى الخروج . وكان أن اتخذت من ذلك ركيزة لمسرحية .

كذلك السحلية فى « ياطالع الشجرة » واختفاءها وعودتها . . لاحظتها بنفسى فى حديقة مكتبى بالمجلس الأعلى للفنون والآداب . . وبنيت على ذلك موقفاً فنياً. . . . وكثيراً جداً من مثل هذه المواقف كانت أساساً لأعمال مسرحية أو قصصية . فأنا لست واسع الخيال بالحد الذى تتصوره . . لكننى أحتاج دائماً إلى ركيزة من الواقع ، أو التجربة الحية ، أبنى عليها شيئاً . فالعمل الفنى هو عندى خيال إذا استطعت أن تقول ، ولكن لابد له من خبرة من الواقع تستطيع أن تجسده .

* * *

فرصة لالتقاط الأنفاس . . !

إن ضيفاً دخل الحجرة فى هذه اللحظة . قليل من الحوار وموعد يتحدد ثم يجلس الضيف مشاركاً فى متعة الاستماع إلى توفيق الحكيم . فى الواقع كان الضيف هو الفنان صلاح طاهر . صديق حميم لتوفيق الحكيم .

وأقول لتوفيق الحكيم : إننى أتذكر الآن رأياً سجله عنك العقاد — رحمه الله — قال عباس العقاد : « إن أدب توفيق الحكيم هو أدب البرج العاجى . هو أدب فكرى ، أدب واحد بعيد يتأمل . لذلك نجد أفكاره على هيئة حوار عقلى . ولا ترى بين المتحاورين شخصيات مرسومة بوضوح . ولكن الحكيم عنده أيضاً موضوعات تتعلق بالحياة الاجتماعية مثل يوميات نائب فى الأرياف وعودة الروح » .

هذا ما كتبه العقاد . وبصفة عامة . . فإن العقاد والنقاد أجمعوا على أنك من أبرع الفنانين الذين يمتازون فى إجراء الحوار بين شخصياتهم حوار ممتع ، ولكنه عقلى ، ما هو تفسيرك لذلك ؟

ويجيب توفيق الحكيم : لا أعتقد أننى أمتاز بالحوار أكثر من غيرى . إن مسألة الحوار هذه مرجعها ولا شك إلى نوع المسرحية الذى الذى بدأت أكتبه فى المرحلة الثانية من حياتى الفنية . هذه المرحلة كانت سمتها الأساسية هى البعد عن افتعال مواقف مسرحية مثيرة تشد الجمهور بحركتها الظاهرية والخارجية كما كنت أفعل فى المرحلة الأولى . لقد تغير أسلوب المسرحية إلى وضع جديد هو اعتمادها على رسم أشخاص يشعرون ويفكرون . فالوسيلة هنا إذن لإبراز هذه المشاعر والمواقف

هى حديثهم بعضهم مع بعض — أى الحوار — الذى يحل هنا محل الموقف المثير . من هنا كان للحوار كأداة الأهمية الأولى فى إبراز الحركة الداخلية لما يعتمل فى نفوس الأشخاص . لذلك برزت وظيفة الحوار بروزاً لم يكن مألوفاً فى حياتنا المسرحية قبل ذلك . من هنا ألصق بى تعبير موهبة الحوار ونحو ذلك من الصفات . فى حين أن الحوار فى ذاته لم يكن عندى شيئاً واقفاً بمفرده فى الفراغ . . ولكنه متصل بأشخاص لديهم أفكار داخل مسرحية .

— بالمناسبة . . ما أهم ما تجاهله النقاد من أفكارك ؟

— اسأل النقاد . . !

— وهل يفعل أحد ذلك مع نقاد هذه الأيام . . ؟ ! على أية حال . . أرجو أن نستدير الآن إلى جانب آخر : ما هو تصورك لدور الأديب فى المجتمع ؟

لحظة وأخرى قبل أن يرد الحكيم : فى الواقع أن دور الأديب حسب مفهومى الذى ذكرته فى كتاب « التعادلية » هو أنه معبر ومفسر للحياة والمجتمع . إنه معبر بمعنى أنه يعكس الصورة التى تتراءى له شخصياً من الأحداث المحيطة به والمكونة لما نسميه الحياة . . التى يضطرب فيها هو شخصياً فى مرحلة وجوده كما يضطرب فيها المجتمع فى لحظة من اللحظات . وهذا التعبير قد لا تكون له علاقة بالتفسير . . كمن يعبر مثلا عن إحساسه بوردة أو بشعور عاطفى . فطريقة التعبير هنا عن جمال الشعور أو عطر الزهرة هى فى ذاتها عملية خلق أدبى .

أما التفسير بعد ذلك فهو وجهة نظر الفنان فى وجود هذه الوردة أو العاطفة من حيث هى عامل إيجابى فى إطار أكبر ، للفنان طريقته الخاصة فى النظر إليه . أن الأدب أو الفن يكتمل فى نظرى إذن عندما يكون معبراً أو مفسراً فى وقت واحد . . فإذا طغى التعبير على التفسير أو العكس فإن هذا العمل الفنى — فى نظرى — يكون قد أخذ معنى آخر .

* * *

صدام أجيال . . !

أنا الآن على وشك أن أصطدم فى الرأى بعد لحظات مع توفيق الحكيم ! إننى أرى أن الحكيم واحد من الذين لخصوا مصر وعبروا عنها وقلقوا عليها . والفنان الأصيل هو الذى يجيد التعبير عن عصره وقد فعل توفيق الحكيم . .

ولكن هذا لا يمنع بأى حال من الاختلاف مع توفيق الحكيم . هأنذا أستعد لأفعل .

أقول لتوفيق الحكيم : أنت ذكرت فى إجابتك بين سطور كتابك الذى أصدرته بعنوان « التعادلية » . أن الهدف من الكتاب كان توضيح مذهبك فى الحياة . . وكما يتضح من عنوان كتابك نرى أن الحياة هى دائماً تعادل بين شيئين. تعادل بين الحرب والسلم . . بين الشبع والجوع بين الإيمان والعقل . . بين الشتاء والصيف . . بين الحب والكراهية . . إلخ .

وفى الصفحة السابعة عشرة من الكتاب تقول إن الأرض « كرة ،

تعيش بالتوازن والتعادل بينها وبين كرة أضخم هى الشمس . . فإذا أختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس وضاعت فى الفضاء . . التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض» . بعد ذلك يستطرد الكتاب ليقرر أن التعادل هو أيضاً الحقيقة الأولى فى حياة الإنسان .

و وجة خلافى معك هو : أن هذه — وغيرها — من وجهات النظر المماثلة — ترى أن الوضع الطبيعى للأشياء هو أن توازن نفسها بنفسها . الضعيف سيصبح قوياً . . لأنه لا بد من تعادل القوى والضعيف . . الفقير سيصبح غنياً . . لأنه لا بد من تعادل الفقر والغنى . . إلخ . كل هذا لأن الحياة تميل إلى تصحيح نفسها بنفسها . ... هذا غير صحيح ، مطلقاً يا سيدى . بل إننى أخشى أن أقول إنه تبرير لموقف سلبى شديد السلبية من الحياة نفسها .

إن وجود توازن فى لحظة من اللحظات ليس معناه أنه توازن مستمر من ناحية ، ولا أنه يتمشى مع طبيعة الأشياء من ناحية أخرى . لا . . . هذه مسألة أختلف معك فيها بشدة . . بالضبط مثلما تعجبنى كتب أخرى لك بشدة . . !

لحظات صمت — طويلة هذه المرة — ثم يقول توفيق الحكيم : اسمع أنا أرفض الدفاع عن نفسى !

قلت : ربما . ولكنك لا تستطيع أن ترفض تفسير نفسك . إن بعض آرائك فى هذه اللحظة . . هى محل مناقشة . . هذا هو الموضوع .

هنا بدأ توفيق الحكيم يرد بأقتناع : إن التعادلية — كما قصدتها — معناها أن كل شيء فى الكون وفى الإنسان يقوم على جانبين فى وقت واحد . . وهما القوة والضعف ، وإلا ما قام واحد منهما . التعادلية تقول إن الضعف لا يمكن أن يكون شيئاً مستمراً ، ولكنه يظل يتطلع إلى أن يخفض من سيطرة القوة حتى لا يتلاشى . . لأنه لا يوجد فناء تام فى الوجود ، ولكن توجد عمليات تحول مختلفة . فعمليات التحول هذه تقضى بأن الضعف لا يظل ضعفاً والقوة لا تظل قوة .

والقيمة العملية لهذا المبدأ عندى ، وخاصة لبلادنا الضعيفة ، هى أن تشعر بأن هذا الضعف ليس صفة دائمة . . وإنما هو يتحرك تحركاً حتمياً فى سبيل أن يعادل القوة التى أمامه ولا يجعلها تسيطر عليه إلى حد إفنائه .

قلت لتوفيق الحكيم معترضاً : لا . . لا يا سيدى . إن الوضع الطبيعى للأشياء هو القوة . إن الضعيف سوف يزداد ضعفاً ، والقوى سوف يزداد قوة . . إذا تركنا المسألة لطبيعة الأشياء . ولكى يحدث تحول لا بد أن يبذل الضعيف مجهوداً مضاعفاً : مرة لمنع الفجوة من الاتساع ومرة لسد هذه الفجوة . وعندما يصبح الضعيف قوياً فى نهاية الأمر فليس هذا لأنه ظل هناك جالساً ينتظر . . بل لأنه سعى بإيجابية مطلقة — وليس بسلبية شديدة — إلى تحسين مركزه ، هذا ما أراه على أى حال .

توفيق الحكيم يرد : « لا يوجد فى التاريخ إنسان يتخذ لنفسه موقف المتفرج السلبى . لم يحدث هذا مطلقاً فى أى مرحلة من مراحل الإنسانية

لأن هذا مخالف لطبيعة الإنسان الحى . فالسلبية التى تتحدث عنها هى دائماً صفة مؤقتة ظاهرية للحظة من لحظات الزمن . إن الميت نفسه ليس سلبياً ، والموت ليس سلبياً .

إن الجسم فى حالة المرض يفرز تلقائياً العناصر المقاومة لمرضه ولو لم تكن هناك أدوية مساعدة من بعض الأجسام فإن الإنسان فى حالاته المعنوية لا بد أن يفرز مصادر علاج ضعفه » .

* * *

لحظات ، ثم فضلت أن أغير الموضوع !

إننى أفكر فى العودة إلى سؤال توفيق الحكيم عن المسرح . أقول : عندما تشرع فى كتابة رواية أو مسرحية مثلا . . هل تخطط لها مقدماً ، محدداً أبعاد شخصياتها سلفاً ، أو أنك من نوع آخر — لنقل تشارلز ديكنز مثلا — الذى كان يترك نفسه يتحرك ، بل حتى يتشتت بما يكتبه ؟

يجيب توفيق الحكيم : طبعاً لا بد أن تكون لدى فكرة مقدماً عن حدود كل شخصية وعن الهيكل العام للمسرحية. إلى جانب ذلك فلا بد للعمل الفنى — خصوصاً المسرحية — من بناء متين . ومتانة البناء ترجع إلى إتقان الصنعة . والصنعة هى الجانب الواعى من عمل الفنان . ولكن إلى جانب ذلك هناك جانب اللاوعى . أى المخزن الذى تتكدس فيه الصور المختلفة من خبرات الفنان وتجاربه فى الحياة . هذا الجانب هو الذى تتولد منه الخلايا اللازمة لتخليق الشخصيات . هذه الشخصيات لا يتحكم فيها الفنان فى مبدأ الأمر ويتركها تعيش فى داخله فترة .

فالمعايشة الطويلة مع العمل الفنى تسبق دائماً عملية البناء . وبالنسبة لكثير من الفنانين ، فإن عملية البناء أو التنفيذ الواعى هى أسهل المراحل . . خصوصاً عندما يصلون إلى درجة الخبرة والتمكن والإمساك بناصية الفن . هذه المرحلة الأخيرة لا تستغرق منهم عادة الوقت الطويل الذى تستغرقه المعايشة مع مكونات الخلايا الأولى .

وعندما أقول إن الشخصيات أحياناً ما تقود الفنان فى مبدأ الأمر إلى مصائر تتمشى مع منطقها الذى لم يتراءى بعد للفنان بشكل نهائى ، فإنما أقصد بذلك المرحلة التى لم تخضع بعد إلى سيطرة البناء الفنى النهائى .

قلت : سؤال أخير — لماذا أتجهت من البداية إلى الكتابة للمسرح ؟

ويضحك توفيق الحكيم حينما يرد : إن المسرحية هى فن اقتصادى بخيل . . الكلمات فيها محسوبة بدقة . . والوقت فيها مقيد . والحيز فيها محدد . . لا محل فيها للاسراف والانفلات . . !

* * *

و . . . .

برغم أن البخل صفة مشهورة عن توفيق الحكيم — حقيقة أو وهماً — فإن جلساتى معه كلفته سبع ساعات — وأهم من ذلك — ثلاثة فناجيل قهوة . تصور . ؟ . صحيح أنه لم يعد يدعونى إلى القهوة ابتداء من الجلسة الرابعة ، ولكن ثلاثة فناجيل قهوة ليست أمراً يسهل الحصول عليه فى مكتب توفيق الحكيم . . !

على أن القهوة الحقيقية التى شربتها كانت إجابات توفيق الحكيم

نفسه . فى بعض اللحظات أعطانى توفيق الحكيم إحساساً بأن الفنان مثل جبل الثلج . . . تسعة أعشاره تحت الماء . تسعة أعشاره لم تنشر بعد . وفى لحظات أخرى أعطانى إحساساً مضاداً بأن أكثر من تسعة أعشاره فى كتبه . . ورواياته . . ومسرحياته .

و . . . .

كم هو فنان . . !

١٤ قرآناً للعرب[٧] !



- أخبار اليوم .. عدد ٢٢ أبريل ١٩٦٨ .

« . . إنى لا أدخل أبداً فى قرار ولا فى محاولة مع أحد من الدول سوى الدولة البهية الإنكليس بغير رضاء الدولة البهية الإنكليس . لا أقبل أن يسكن فى حوزة ملكى وكيل من دولة غير الدولة البهية الإنكليس . أبداً لا أسلم ولا أبيع ولا أرضى ولا أعطى للتصرف بنوع ما شيئاً من ممالكى إلا للدولة البهية الإنكليس » .

هذا هو نص التعهد الذى انتهت بريطانيا فى سنة ١٨٩٢ من الحصول عليه من كل حكام إمارات وسلطنات الخليج العربى ، ومن بينها الكويت والبحرين وقطر ومسقط وعمان والشارقة . . إلخ .

ولو تركنا سنة ١٨٩٢ متقدمين إلى الأمام ست سنوات . . سنجد العالم العربى فى هذه الصورة : الاحتلال البريطانى فى عدن منذ ٥٩ سنة ، فى مصر منذ ١٦ سنة . الاحتلال الفرنسى فى الجزائر منذ ٦٨ سنة ، فى تونس منذ ١٧ سنة . وسنجد أن الشام — وتضم سوريا ولبنان وفلسطين — تابعة للخلافة التركية . وسنجد أن إنجلترا فى طريقها لاحتلال السودان بجيش يقوده كتشنر .

ومقابل هذا سنجد أنه قد مرت سنتان على صدور كتاب غريب فى أوربا عنوانه « الدولة اليهودية » . كتاب صغير . إن مؤلفه صحفى يهودى يراسل جريدة نمساوية من باريس ، واسمه تيودور هرتزل . فى تلك السنة — ١٨٩٨ — يقوم هرتزل بمقابلة قيصر ألمانيا فى أثناء زيارته للقدس ، فى محاولة للحصول على تأييده لإقامة الدولة

اليهودية فى فلسطين. وقد سبقتها محاولة فاشلة — منذ سنة — مع السلطان التركى ، وسجلها هرتزل فى مذكراته بقوله : « . . . السلطان التركى يقول : لا أستطيع أن أبيع (لليهود) شبراً واحداً من فلسطين . لأنها ليست ملكى ، إنما هى ملك شعبى . لقد كسبها بالدم . وسيرويها بالدم مرة أخرى قبل أن أسمح باقتطاعها منا » .

نحن إذن فى سنة ١٨٩٨ .

وكل شىء فى مصر عادى فى تلك السنة . بما فى ذلك ولادة طفل جديد بقرية نواى (محافظة أسيوط) سجلوه باسم : عبد الخالق حسونة النواوى .

ثم نقفز سبعون سنة للأمام .

اليوم نحن فى سنة ١٩٦٨ . الطفل أصبح رجلا . والرجل أصبح أميناً عامّاً للجامعة العربية . والجامعة العربية أصبحت تضم ١٤ دولة عربية مستقلة . وعن الجامعة العربية وأعضائها يدور الحديث مع الرجل .

يقول عبد الخالق حسونة :

« لقد كان المفروض أن تكون الجامعة العربية هى المرحلة الأولى فى رأيى على الأقل — نحو توحيد الأمة العربية ولكن هذه المرحلة طالت أكثر مما يجب . مضت ٢٣ سنة دون أن تنتقل إلى المرحلة التالية . هذه الظاهرة لها أسباب. بعض الأسباب يتعلق بالظروف التى عاشتها الأمة العربية . وبعضها الآخر يتعلق بالحكومات العربية . وفى النهاية يصب هذا وذاك فى الجامعة نفسها .

« الظروف التى عاشتها الأمة العربية كانت ظروفاً صعبة وقاسية . عند إنشاء الجامعة العربية لم يكن هناك غير سبع دول مستقلة . كان أكثر من نصف العالم العربى محتلا بجيوش عسكرية أجنبية ، وحتى النصف المستقل . . مربوط بأحلاف ومناطق نفوذ أجنبية .

«أما عن الحكومات العربية فهى أيضاً تتحمل الجزء الثانى – بل الأكثر – من أسباب عجز الجامعة العربية وطولها كمرحلة أولى . إن الجامعة هى فى النهاية ما تريده لها حكومات الدول الأعضاء . إن أرادوها قوية . . ستصبح كذلك بعد ٢٤ ساعة . إن أرادوها عاجزة . . ستظل كذلك ٢٤ سنة لقد كانت الفترة السابقة هى سنوات التنافس بين الحكومات العربية ، بل لقد تحولت أحياناً إلى سنوات للتصادم . إنه تصادم بين الحكومات فقط . فلا تصادم بين أجزاء الشعب العربى . . لأن الشعب العربى يعرف مصلحته الحقيقية .

« وأخيراً . . فإن هذا كله كان يصب فى الجامعة نفسها . هل تعلم مثلا أنه بحسب ميثاقها . . يمكن أن يجتمع مجلس الجامعة على مستوى ملحقين فى السفارات ؟ هل تعلم أنه قد مرت على الجامعة أزمة فى سنة ١٩٦٢ كادت تهدمها من جذورها ؟ ثم – بعدها بسنتين – تحققت للجامعة فرصة خلق وتدعيم العمل الموحد ؟ ولكن الجامعة بقيت فى الحالتين كما هى : لم تنهدم فى الأزمة الأولى ، ولم تتدعم فى الفرصة الثانية .

« ولو قلنا الآن . . عفا الله عما سلف – ونحن مضطرون إلى ذلك على

أى حال — فيجب أن نقول فوراً : إن المرحلة لم تعد تتحمل أنصاف الحلول . لقد أدت الجامعة العربية دورها برغم كل العواصف وتحت أقسى الظروف . منذ سنة ١٩٥٣ وأنا أحاول مثلا تحقيق الوحدة الاقتصادية العربية . والنتيجة بعد ١٥ سنة هى أن أقل من نصف الأعضاء يوافقون .. وأكثر من النصف يتفرجون ، وبين الفريقين تتحول الجامعة أمام الرأى العام إلى كبش فداء .

« إن الجامعة العربية أدت دورها فى تقوية الصف العربى ومنعه مراراً من التمزق» . وأنا آسف حينما أقول هذا بعد نكسة عسكرية ما زلنا نعيشها :

« المهم . . أن الجامعة يجب أن تنتقل الآن إلى مرحلة جديدة . يجب أن تتحول إلى منظمة اتحادية . أقول إن هذا يجب أن يتم الآن وإلا . . فأبداً » . . .

* * *

نحن إذن مع عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية . إن مكتبة بميدان التحرير فى قلب القاهرة . ومع ذلك ، فعندما تدخل مكتبه ، تحس أنك انتقلت فجأة من عالم صاخب ملىء بالضجيج . . إلى حجرة مفرغة من الهواء . . مشحونة بالهدوء . ويبدو العالم العربى مختلفاً تماماً من داخل مكتب حسونة . بل إن الرجل نفسه يبدو مختلفاً تماماً عما تتصوره رجل رزين . فوق وجهه حاجز يفصله عن الناس . حاجز شفاف . إنه نظارة طبية لها وظيفة مزدوجة فوق عينيه . فهى أولاً تضاعف قدرته

على رؤية الناس بوضوح . وهى ثانياً – كمعظم النظارات الطبية – تجعل عينيه أكبر حجماً وحياة . عينان زرقاوان . تقولان للضيف : أهلا . . بتحفظات كثيرة .

ولكن ابتسامته سرعان ما تزيل هذه التحفظات . الابتسامة دائماً تأخذ مكانها على وجهه من العاشرة صباحاً إلى الواحدة ظهراً . . ثم تنصرف . إلا إذا عادت لعمل أضافى بعد الظهر .

وعبد الخالق حسونة يستفيد تماماً من أذنيه – رجل صامت . إن أذنيه – مضافاً إليهما عيناه وابتسامته – تذكرك بأنك تواجه واحداً من أكثر الشخصيات صمتا . وهو شخص من الصعب تماماً أن تحاصره بأسئلة . . إنه يفضل أن يستمع إليها مرة واحدة ثم يجيب عليها فى النهاية مرة واحدة . إننى سأجرب معه أسلوباً عكسياً : الأسئلة بالتقسيط والإجابة مرة واحدة .

* * *

أقول لعبد الخالق حسونة : هل تعتقد أن ضعف الجامعة يرجع أساساً إلى ميثاقها ؟

أجاب الرجل : طبعاً . . فالميثاق أقل تواضعاً بكثير جداً مما يحتاجه العمل العربى . ولكن – حتى فى حدود الميثاق الحالى – فليته كان من الممكن تنفيذه فى كل الأوقات .

قلت : إذن . . هل لو أقيمت الجامعة من الأصل كمنظمة اتحادية – هل كان هذا يحقق للجامعة الآن وضعاً أفضل ؟

أجاب : لا أعتقد ذلك . لأن الميثاق كان نقطة بداية طبيعية تتفق مع الظروف التى كان يعيشها العالم العربى سنة ١٩٤٥ . ثم . . لماذا نذهب بعيداً ؟ إن أمامنا منظمة الوحدة الأفريقية كمثال . لقد أنشئت منذ البداية باعتبارها منظمة وحدوية ، هدفها تحقيق الوحدة الأفريقية. ماهو موقفها الآن بعد سنوات من إنشائها ؟ لقد تعثرت بدلا من أن تتدعم . تعثرت لأنها سبقت مرحلتها ، ولذلك ولدت وهى تعانى من مرض داخلى . إن المنظمات السياسية كالجسم البشرى . يجب أن تعانى أولاً من أمراض الطفولة وتتحصن ضدها . . قبل أن تصل إلى سن الشباب والرجولة .

وسألت من جديد : أنت تقول . . إنه حتى فى حدود الميثاق الحالى للجامعة ، فإن الحكومات لم تنفذه . لماذا .

أجاب الرجل : لأسباب كثيرة ذكرت لك بعضها . وأضيف إلى ما ذكرت أسباباً أخرى . إن العالم العربى — فيما يتصل مباشرة بالجامعة — قد مر بمراحل كثيرة . المرحلة الأولى من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٦ . فى بداية تلك المرحلة كانت الدول العربية الأعضاء تعانى من النفوذ الأجنبى ، سواء فى شكل احتلال عسكرى مسلح كالاحتلال البريطانى لمصر ، أو احتلال جزئى كالوجود العسكرى البريطانى فى قاعدة الحبانية بالعراق . أو نفوذ مقنع فى معظم الدول الأخرى . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان أكثر من نصف الدول العربية لم يحصل بعد على أستقلاله أصلا . . كالجزائر وتونس والمغرب والسودان .

ثم حدث ــ فى المرحلة نفسها أن قامت الثورة فى مصر ووقعت اتفاقية جلاء الإنجليز (١٩٥٤) وتحررت ليبيا وانضمت للجامعة (١٩٥٢) ثم انضم السودان كذلك (١٩٥٦) .

والمرحلة الثانية تبدأ بحرب السويس سنة ١٩٥٦ وتستمر إلى سنة ١٩٦٢ ؛ حرب السويس قضت تماماً على النفوذ الاستعمارى فى أجزاء كثيرة من العالم العربى . ثم استقلت تونس والمغرب وانضمت للجامعة (١٩٥٨) ثم ثورة العراق والوحدة المصرية السورية فى السنة نفسها إلى أن حدث الانفصال فى سنة ١٩٦١ .

وأول ما نلاحظه على هذه المراحل هو أنها كانت متداخلة بعضها فى بعض أولاً ، وكانت ثانياً متناقضة التأثير على وضع الجامعة العربية والعمل العربى عموماً . فبعض الأحداث كان إيجابياً ، وبعضها كان سلبياً . وبعضها مدعم للعمل العربى وبعضها هادم له .

فى هذه المرحلة كادت الأحداث السلبية تهدم الجامعة العربية . فبعد مؤتمر شتورة سنة ١٩٦٢ كادت مصر تنسحب نهائياً من الجامعة إزاء الهجوم الموجه ضدها . ولوكان ذلك قد حدث لانهدمت الجامعة من أساسها . ولكن مصر لم تنسحب . والجامعة احتوت هذه الأحداث السلبية :

وباستمرار الأحداث نلاحظ أنه فى السنوات التالية استقلت الكويت والجزائر . هذا عامل إيجابى لتقوية الجامعة العربية . ولكن فى هذه السنوات وصلت التناقضات بين الحكومات العربية إلى درجة لم

تبلغ مثلها مطلقاً فى أى فترة سابقة . إنها تناقضات تحولت أحياناً إلى حد التصادم . فى مثل هذا المناخ كان العمل الجماعى داخل الجامعة يواجه كل المعوقات التى تتصورها أو لا تتصورها .

قلت : هذا طبيعى ، ولكن . . تلك الفترة لم تستمر طويلا . ألم يجتمع الملوك والرؤساء العرب فى مؤتمر القمة الأول سنة ١٩٦٤ ؟

رد عبد الخالق حسونة : نعم . هذا المؤتمر — فى رأيى — كان يصح أن يتحول إلى نقطة بداية حقيقية لتطوير الجامعة العربية جذرياً . لقد علقت عليه أمالا كبيرة . تصورته بداية للعمل الجاد الموحد . وقد حدث ذلك فعلا . . شهراً أو شهرين أو أكثر قليلا . ولكننى الآن عندما أنظر إلى السنوات الثلاث السابقة على يونيو ١٩٦٧ . . أجد أن الجامعة العربية قد تحملت خلالها عذاباً كثيراً . يكفى أن تتذكر الشقاق بين القاهرة والرياض مثلا وتأثيره على العمل العربى فى تلك الفترة .

قلت : بصرف النظر عن التفاصيل . . فى أى الميادين سجل العمل العربى أكبر خسارة . . فى سنوات التناقض هذه ؟

أجاب الرجل بحسم : فى ميدان رئيسى بالتأكيد ، هو ميدان العمل من أجل فلسطين . هنا بالذات واجه العمل العربى أكبر تحدياته المعاصرة . وهنا أيضاً واجه أكبر متاعبة . وعندما نحاسب السياسة العربية خلال الفترة الماضية . نجد أنها ، فى تصادمها بعضها ببعض ، لم تسمح الناس بأن يفكروا فيما هو أبعد من الظروف العاجلة التى يعيشون فيها .

قلت : بالمناسبة . . ماهى — فى رأيك — أكبر أخطاء السياسة العربية من ناحية الأسلوب . . خلال السنوات الماضية ؟

أجاب الرجل بكلمات بطيئة تتقدم نحو السرعة : « أكبر خطأ أنها لم تكن واقعية . بمعنى أنها كانت تعبد الشعارات النظرية . لأن الحل الواقعى لا يتحقق إلا بالعمل الموحد فقط » .

* * *

والمسألة أصبحت تحتاج إلى تهدئة ، والتهدئة نجدها فى حياة حسونة نفسه . إن عبد الخالق حسونة هو الأكبر بين إخوة أربعة . الثانى هو محرم حسونة (رئيس مجلس إدارة شركة بسكو مصر) . الثالث عبد الحى حسونة (٤٥ سنة) .

والإخوة الأربعة تربط بينهم صفات عائلية كثيرة فالأربعة متدينون لا يدخنون . لا يسهرون كثيراً . منظمون فى حياتهم العائلية . . متشابهون فى أصواتهم ، وحينما لا تدقق السمع لا تستطيع أن تميز بين أصواتهم . الأربعة لهم رياضة مشتركة هى المشى . وفى حالة عبد الخالق حسونة فإن رياضته السابقة كانت لعبة التنس . أصبحت الآن مجرد السير ساعة كل يوم . حكم السن .

وعبد الخالق حسونة يشاهد السينما بانتظام ، مرة كل أسبوع . وهو يحب المسرح . يتذوق الموسيقى . يعشق الأوبرا والباليه . آخر مرة خرج فيها كانت لمشاهدة فرقة الباليه الروسية .

وبالمناسبة : حسونة تكون سهراته دائماً عندما يذهب إلى المسرح

أو السينما . أولاده خمسة . أكبرهم مدير شركة . أصغرهم طالب فى الثانوية العامة . وهو دائماً يشرك أولاده معه فى الرأى وخصوصاً فى المسائل العائلية . سمها ديمقراطية ، أو شورى أو مجرد إلمام حقيقى بوظيفة الأب .

وعندما سألته عن أسلوبه فى تربية أولاده أجاب : « . . إننى أومن دائماً بأن المنزل وظيفته أهم من المدرسة فى تكوين شخصية الطفل ومساعدته على التقدم فى الحياة بعد ذلك . ولقد كنت حريصاً على أن يؤدى المنزل دائماً هذه المهمة بالنسبة لأولادى »

ثم سألته ، هل يسمح لأولاده بمعارضته . . أو حتى بالاختلاف معه فى الرأى ؟ ولكن السؤال أدهشه . لقد رد على بأن هذا يحدث فعلا . يحدث أن « . . أحد أبنائى يعارضنى فى رأى أقوله . حينئذ أطلب منه أن يقدم الدليل على عدم صحة رأيى . وحينما يشرع ابنى فى إقناعى بصواب رأيه هو وخطأ رأيى أنا . . أكون بالفعل فخوراً به . لأننى ساعتها أحس أنه قد أصبح رجلا يعتمد عليه . أحس أنه قد أصبح مستقل الرأى والعقل ، وهذا ما أتمناه له » .

ولا شك أن عبد الخالق حسونة نوع نادر من الآباء فى هذه الأيام لكن . . ما علينا . إنه لا يرى ذلك . بل إنه يعتبر أن الأب الحقيقى هو الذى يشجع إبنه على أن يكون ناقداً لحياته أولاً . . ثم لحياة الآخرين .

المهم — أن عبد الخالق حسونة يقرأ كثيراً . إن معظم قراءته تشمل التاريخ والاقتصاد والأدب . ولكن ، فى الفترة الأخيرة تتركز قراءته

فى الكتب الأجنبية التى صدرت بالخارج عن حرب يونيو .

* * *

..ها نحن عدنا للسياسة من جديد .!

ولم أكن أريد ذلك إلا لسؤال ملح : يقولون إن الجامعة تتحمل الجزء الأكبر من مسئولية إخفاق العمل العربى فى الخارج . يقولون أيضاً إن مكاتب الإعلام التابعة للجامعة فى الخارج هى مثل واضح لذلك . . فما رأيك ؟

وللمرة العاشرة تختفى ابتسامة الرجل وهو يرد : شوف . . بعض الناس وصل فى نقده لمكاتب الإعلام إلى حد القول بأنها أصبحت أضحوكة غفر الله لمن قال هذه الكلمة . ولكنى أحب أن أقول إن النقد عندما يصبح بهذا الشكل يتحول إلى تشهير وليس مجرد نقد . يتحول إلى هدم تكسب منه إسرائيل ونخسر منه نحن .

وقاطعته قائلاً : أرجو ألا تقع الآن فى الخطأ نفسه .. لقد حولنا إسرائيل طوال ٢٩ سنة إلى عذر لإعفاء أنفسنا من النقد وأعفاء حياتنا من المراجعة .

قال حسونة : لا . أنا لا أقول ذلك هرباً من النقد . ولكنك تعلم أن بابى مفتوح فى كل وقت — وكذلك أبواب العاملين معى — أمام أى شخص يريد أن يناقش موضوعياً الأعمال التى أدتها مكاتب الجامعة فى الخارج . لقد قامت بأعمال أكبر من طاقتها وإمكانياتها . يا أخى عد بذكرتك إلى الوراء قليلا . حاول أن تتذكر مدى الإمكانيات

الضعيفة جدا التى حصلت عليها مكاتب الإعـــلام من الحكومات العربية . حاول أيضاً أن تتذكر — مقابل ذلك — ضخامة الأموال التى أنفقتها معظم الحكومات لهجوم بعضها على بعض فى الإذاعات ، والصحف ، والتليفزيون . تذكر أننا — بعد ٢٣ سنة من توقيع ميثاق الجامعة — ليس لدينا وكالة أنباء أو جريدة واحدة . . على مستوى العالم العربى . ومقابل ذلك هناك المئات من الصحف والعشرات من وكالات الأنباء . . الموجودة داخل هذه الدولة أو تلك . . للهجوم على هذه الدولة أو تلك .

* * *

مرة أخرى : أصبح الحديث ساخناً أكثر مما يجب ، ولا يبدو هذا دليلا على انفعال عبد الخالق حسونة فهدوؤه أكبر من صمته . ولكن يبدو أنه دليل على حساسيته للنقد فى أغلب الأحوال ، بحيث لم تعد دبلوماسية حسونة دفاعاً مناسباً .

إن عبد الخالق حسونة محام بحكم تعليمه ، دبلوماسى بحكم عمله ، لقد تخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٢١ . وظل يعمل محامياً لمدة سنتين وفى سنة ١٩٢٢ التحق بجامعة كمبردج بإنجلترا وحصل على درجة الأستاذية فى العلوم السياسية والاقتصادية بمرتبة الشرف الأولى . إنها السنة التى سافر فيها فى أول بعثة أرسلتها وزارة الخارجية المصرية لإعداد أول مجموعة من الدبلوماسيين المصريين .

على أن حياته الوظيفية بدأت وانتهت بالعمل الدبلوماسى . فبعد

دراسته فى كمبردج عين بالسلك السياسى المصرى . وبعد وظائف عديدة فى الخارج أصبح سكرتيراً عاماً لوزارة الخارجية . ثم وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية (١٩٣٩) فمحافظاً للإسكندرية (١٩٤٢) . فوكيلا للخارجية (١٩٤٨) . فوزيراً للشئون الاجتماعية (١٩٤٩) . فوزيراً للتربية والتعليم ثم وزيراً للخارجية فى سنة واحدة (١٩٥٢) .

وقد حدث فى سنة ١٩٣٩ أن صحفياً بعيد النظر تنبأ لعبد الخالق حسونة بأنه سوف يصبح فى المستقبل « رجل مصر الدبلوماسى » . . وقد أصبح حسونة هذا الرجل فعلا . . على مستوى العالم العربى .

وأسأل حسونة : بعد خبرتك الدبلوماسية ، ما هى مواصفات الدبلوماسى الناجح ؟

أجاب الرجل : كلمة « مواصفات » هى تعبير عن شىء ثابت . فمن الصعب أن نطلقها على مجهود إنسانى متحرك كالعمل الدبلوماسى

قلت : هذه إجابة دبلوماسية يا سيدى . فى الواقع أنت تفاديت الإجابة أصلا . ولذلك دعنى أغير السؤال فأجعله كما يلى : ما هى الصفات التى تكفل النجاح للدباوماسى ؟

سكت حسونة بضع لحظات ثم أجاب : أولاً أن يكون على خلق وهذه مسألة أكثر أهمية مما تتصور . فالانتهازى لايصلح للعمل الدبلوماسى إنه انتهازى فقط . ثانياً . . يجب أن يكون للرجل الدبلوماسى شخصية متكاملة جذابة . وثالثاً : الاستعداد العلمى . خصوصاً فى عصرنا هذا .

ويعد قليل يضيف حسونة : إن اختفاء أى واحد من هذه العناصر

الثلاثة يؤدى إلى إخفاق الدبلوماسى . ولا ينعكس هذا الإخفاق على شخصه فقط ، بل على أى مهمة يقوم بها أيضاً .

قلت : إذن . . أيهما أصلح للعمل الدبلوماسى فى رأيك ، المحترفون أم الهواة ؟ !

أجاب الرجل : إن الدبلوماسية هى مهنة كأى مهنة أخرى . ومن ثم فمن الممكن — نظرياً — أن نعثر فيها على هاو ناجح . ولكن — عملياً — هذا استثناء . أما القاعدة فهى أن المحترفين أولاً . . هم الذين ينجحون فى العمل الدبلوماسى .

وأسأل من جديد : أنت عاصرت الدبلوماسية المصرية منذ نشأتها الحديثة فى هذا القرن . . فهل استطاعت حتى الآن أن تكون لنفسها ملامح مميزة ؟

ويعود بذاكرته خلفاً حينما يقول : من الظلم أن نطلب للدبلوماسية المصرية ملامح مميزة خلال الفترة القصيرة التى مرت من عمرها . إنك تعلم أن مصر لم يصبح لها الحق فى التمثيل الدبلوماسى إلا سنة ١٩٢٢ فقط . فبعد تصريح ٢٨ فبراير فى تلك السنة ، سمحت بريطانيا لمصر بأن يكون لها تمثيل دبلوماسى فى الخارج ، ولقد استمر الاحتلال البريطانى لمصر قائماً إلى أن وقعت اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ . ومن الثابت أنه فى ظل احتلال مسلح بهذا الشكل يصبح عبء الجهاز الدبلوماسى أكبر ، وفى نفس الوقت تصبح مهمته أصعب . فطوال وجود الاحتلال ، كانت القيود مفروضة على الجيش المصرى . . بالإضافة إلى سيطرة الخبراء الإنجليز على تكوين

الجيش وتسليحه . فى مثل هذا الوضع تكون الإرادة الفعلية للدولة مشلولة تماماً . فإذا ما أضفنا إلى ذلك فساد نظام الحكم الملكى الذى كان قائماً حينئذ . . نجد فى النهاية أن المجال الذى كان مفتوحاً للعمل الدبلوماسى كان محدوداً ، وفى الوقت نفسه كان هو المجال الوحيد . بمعنى أنه إلى سنة ١٩٥٢ كان العمل الدبلوماسى يتحمل وحده عبء شرح قضايانا للرأى العام الدولى . ويواجه وحده فى الخارج المناورات المضادة من جانب الدولة المحتلة ، ولم تكن الدبلوماسية المصرية تعمل على المستوى الدبلوماسى فقط ، بل كان عليها أيضاً أن تعمل على المستوى الصناعى والاقتصادى للتخفيف من قيود الاستثمارات الأجنبية فى مصر ، وعلى المستوى الاجتماعى ، لكسب تأييد المنظمات الشعبية الدولية للقضية المصرية .

قلت : من خلال خبرتك هذه . . ما هو مقياس نجاح الرجل الدبلوماسى فى رأيك ؟

أجاب عبد الخالق حسونة : المقياس هو أن يخلق رأياً هامًّا يلائم قضايا بلده . وهنا يجب أن يكون الدبلوماسى ملمًّا تماماً بكل ظروف وثقافة البلد الذى يعيش فيه . ليس هذا فقط ، بل عليه أن يعيش بحيوية داخل المجتمع نفسه . لقد انتهت دبلوماسية المكاتب . وانتهت منذ زمن طويل . إننى أذكر مثلا أننى كنت فى سنة ١٩٢٨ قائماً بالأعمال فى سفارتنا بتشيكوسلوفاكيا . ولم يكن معى فى السفارة غير موظف واحد يعمل أميناً للمحفوظات . كنت أقضى ثلاثة أيام من الأسبوع فى مكتب

السفارة لتدريب أمين المحفوظات على العمل الدبلوماسى . أما باقى الأسبوع فلقد كنت أزور فيه كل مراكز الصناعة والزراعة خارج براغ العاصمة ولقد دعيت لزيارة تشيكوسلوفاكيا منذ ثلاث سنوات . ومع أنها تغيرت تماماً خلال تلك المدة . . إلا أننى كنت أحس أنى أعرفها شبراً شبراً بعد مرور ٣٧ سنة .

* * *

. . نعود للجامعة العربية .

الكلمات موجهة لعبد الخالق حسونة : إذا تركنا الماضى للتاريخ يحكم عليه . . ونظرنا إلى المستقبل ، فكيف ترى السبيل لتصحيح الأخطاء الماضية فى العمل العربى ؟

أجاب الرجل بوضوح : العمل الموحد . إنه وحده الذى يستطيع أن يعوض أخطاء الماضى . والعمل الموحد بهذا المفهوم يجب أن يكون شاملا . فالجامعة نفسها يجب أن تتحول إلى منظمة اتحادية . والقيادة العسكرية الموحدة التى بدأت سنة ١٩٦٤ ، يجب أن تتحول إلى جهاز عسكرى موحد فعلا . إن كل الدلائل الحالية تشير إلى إخفاق الحل السياسى فى إزالة آثار العدوان أمام تشدد إسرائيل . إذن لا يبقى سوى الحل العسكرى طيب . . ألا يستدعى الحل العسكرى بحثاً ودراسة وتخطيطاً وتنظيماً ؟ ألا يستدعى هذا بدوره تنظيماً للموارد والإمكانيات والقدرات على مستوى العالم العربى كله ؟ هل هذا التنظيم سيأتى لنا من السماء ؟ إن المسألة لم تعد تتحمل الاجتهادات .

ولو اقتصر كلامى عند هذا الحد فلن يختلف معى أحد . فنى النهاية نجد أن الحكومات العربية كلها متفقة — نظريًّا — على هذه الحقائق ولكنها متفقة عليها باعتبارها شعارات فقط . أنا آسف لأنى أقول ذلك . ولكن الشعارات لا تزيل نكسة ، الأعمال وحدها هى التى تفعل ذلك .

قلت : هل أفهم من هذا أنك متشائم ؟

أجاب الرجل : لا . لا تفهم ذلك ، ولكننى أقولها بصراحة : الآن ، وإلا . . فأبدا !

وتمر لحظات صمت قبل أن أعيد سؤال عبد الخالق حسونة : بعد الأزمات المتواصلة التى شهدتها فى الجامعة طوال السنوات الماضية . . ما هو شعورك بالضبط نحو وظيفتك كأمين عام للجامعة ؟

ويضحك حسونة حينما يقول : شرف . . عندما عرض على هذا المنصب فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، اعتذرت عن عدم قبوله شاكراً . ولكن إصرار المسئولين فى بلدى حينئذ ، وإصرار مجلس الجامعة العربية ، على أن أقبل المنصب . . لم يترك لى مجالا للتردد . وبعد أسبوع من التفكير المستمر قبلت المنصب ، فى ١٤ سبتمبر ١٩٥٢ . قبلته لأنه تكليف وطنى . لأنه رسالة أحملها وأدافع عنها ما بقيت فيه ، بل ما حييت من عمرى . ولقد مرت على ١٦ سنة تقريباً وأنا أحمل المنصب فوق كتفى . ولم أكن طوال تلك المدة حريصاً على الوظيفة . وبالعكس كنت حريصاً على الرسالة من أن تتأثر بالوظيفة . لقد عملت فى هذا المنصب كعربى أولاً وأخيراً . فمن اللحظة التى دخلت فيها الجامعة تركت

على بابها جنسيتى المصرية ، وطلبت من كل العاملين معى أن يفعلوا الشيء نفسه .

قلت : لو عدنا إلى سنة ١٩٥٢ من جديد . . هل كنت تقبل المنصب أيضاً ؟

أجاب الرجل بعد تفكير : نعم . ربما أتردد مدة أطول . ولكننى فى النهاية أقبل . لقد قضيت سنوات عديدة فى خدمة بلدى. وأعتقد أن أن خير ما جازانى الله به عن خدمتى الطويلة هو ما ختمه بها من إسناد هذا المنصب إلى . أننى الآن شاكر لله ، معترف له بكل ما قد أكون قد قصرت فى أدائه ، راجياً لمن يخلفنى بتوفيق يزيد عما لازمنى خلال تلك المدة .

قلت : هل أنت متفائل من المستقبل العربى ؟

أجاب : نعم . .

قلت : لماذا ؟

أجاب : لأننى متفائل بطبعى .

قلت : هذه أجابة غير علمية يا سيدى ؟

رد حسونة : إن التفاؤل هو الأمل .

قلت : الأمل . . فى ماذا ؟

رد بسرعة : الأمل فى جيل جديد تنبته الأرض العربية . جيل قومى فى عقيدته . عربى فى أصالته . جيل يفعل ما يقوله ويؤمن بما يفعله . هذا الجيل هو الذى سيحسم أمر أمته . ألست معى فى ذلك ؟

قلت : إن الحق معك ، ولكننى أضيف : أن لدينا فى الدين قرآناً واحداً لكل العرب . هذا صحيح . ولكن فى السياسة . . عندنا ١٤ قرآناً !

* * *

قلت ذلك . ولكن هناك إجابة أخرى سجلها المفكر الكبير ساطع الحصرى منذ ١٨ سنة عندما كتب : « لا يجوز أن يقال إن العرب خسروا معركة فلسطين (١٩٤٨) مع أنهم كانوا سبع دول . بل . . لأنهم كانوا سبع دول » ! .

الآن . . مرت ١٨ سنة على إجابة ساطع الحصرى ، أصبحنا خلالها ١٤ دولة ، لا مجرد سبعة . و . . .

ما زالت إسرائيل ترفع شعار زعيمها الحزبى السابق مناحم بيجن . . عندما قال من ١٨ سنة أيضاً : كن أخى ، وإلا . . سأقتلك . . .

عبدالوهاب التاسع عشر!



- آخرساعة .. عدد ١٢ مايو ١٩٧١ .

دق التليفون فى منزل محمد عبد الوهاب ، كان المتحدث على الطرف الآخر هو يوسف وهبى. تحيات وسلامات وأشواق وأحضان تليفونية ، ثم . . .

— صندى عناب جاس نوح صعدين بوغاشا صلمنى كرفس .

هكذا قال عبد الوهاب ليوسف وهبى . بعدها — فوراً — انتهت المكالمة !

ماذا قال عبد الوهاب بالضبط؟ ماذا يقصد ؟ بأى لغة تكلم ؟ كيف فهمه يوسف وهبى؟ كانت هذه أسئلة سريعة تلاحقت فى داخلى ، ولم أستطع أن أوجهها لعبد الوهاب . الوقت غير مناسب . ربما أسأله عنها فيما بعد . . بعد ساعة . . بعد ساعتين . . ربما . . ولكن ليس الآن

إن عبد الوهاب مشغول الآن . إننى — وحدى — أجلس معه . أجلس فى صالونه الداخلى . ولكن عبد الوهاب معى بجسه فقط . . أما عقله فهو مشغول بإنتاجه السنوى : أغنية أم كلثوم .

إن الأغنية — هكذا يحكى عبد الوهاب فيما بعد — هى قصة بدأت بتليفون من أم كلثوم .

— إيه رأيك فى القصيدة دى ؟ . . تحب تسمعها ؟

ورد عبد الوهاب على أم كلثوم متسائلاً : قصيدة ؟ مين كتبها ؟

— لن أقول لك الآن . . اسمع الكلمات أولاً . . وقل لى رأيك . .

ثم انطلقت أم كلثوم على الجانب الآخر من خط التليفون تقرأ كلمات الأغنية .

أغداً ألقاك يا خوف فؤادى من غد
يا لشوقى واحتراقى فى انتظار الموعد
آه كم أخشى غدى هذا وأرجوه اقترابا
كنت أستدنيه لكن هبته لما أهابا

ولم ينتظر عبد الوهاب . لقد قاطع أم كلثوم معلناً ابتهاجه : الله . . دى كلمات هايله . . والنبى . . مين بقى مؤلفها ؟

– واحد ما تعرفوش . شاعر سودانى اسمه الهادى آدم . .

– إنما دى معانى حلوه بصحيح . . حلوة وجديدة . .

– يعنى موافق على تلحينها ؟

– جداً . . جداً . . سمعينى كده الباقى . .

ويومها استأنفت أم كلثوم قراءة الكلمات القادمة من السودان ، قبل أن ترسلها إلى عبد الوهاب فى منزله . بعدها – من يومها – بدأ عبد الوهاب يترجم كلمات القصيدة إلى معان موسيقية يسمعها الناس .

* * *

بعد شهر . الصيف والشمس والدفء والصفا والهواء والهدوء والكورنيش وبحر إسكندرية . هنا وضع عبد الوهاب أولى لمساته الموسيقية فى كلمات القصيدة . من هذا المنزل – منزله بالإسكندرية ، انطلق أول خاطر موسيقى

من عقل عبد الوهاب إلى فمه إلى جهاز التسجيل الصغير الذى يصحبه معه دائماً إلى أى مكان يذهب إليه. من الآن، من هذه اللحظة بالضبط، بدأ عبدالوهاب يدخل طرفاً ثانياً فى القصيدة بعد الشاعر الذى كتبها وقبل أم كلثوم التى ستغنيها . من هذه اللحظة سوف يبدأ الأطراف الثلاثة مشاوراتهم فى كل معنى ، وكل بيت ، وكل كلمة فى القصيدة . هل هذه الكلمة مناسبة ؟ هل تعطى المعنى ؟ هل نبقى عليها ؟ لماذا لا نعدلها ؟ لماذا لا نجرب؟ لماذا لا نتشاور مع صاحب الأمر؟ لماذا لا نستدعى الهادى آدم من السودان ؟

وفعلا . . جاء الشاعر من السودان فى رحلة للاشتراك فى الأعمال التحضيرية لهذا العمل الغنائى الجديد . رحلة مفاوضات .

— هل المعانى هكذا أفضل ؟ هل هى أكثر تناسقاً ؟ أكثر اختصاراً؟ أكثر جمالا ؟

نعم . نجحت المفاوضات بين الشعر والغناء والموسيقى .

بدأت الموسيقى .

• • •

بعد ستة أشهر . عبد الوهاب فى منزله . أنا معه وحدى فى الصالون . الشاى والنعناع والتليفونات ونهلة القدسى والعود .

— سعاد . . هاتى جهاز التسجيل لو سمحت !

جاء الجهاز . بدأ التسجيل .

— ما هذا ؟

— دندنة . .

— نعم . ولكن ما هى المناسبة ؟

— القصيدة الجديدة .

ماذا تقول ؟

— تقول . . .

* * *

لأول وهلة خلقت كلمات الشاعر السودانى تناقضات كثيرة فى عقلى . ما هذا الذى أسمعه ؟ كلمات ؟ نعم .

ولكن . . أى كلمات ؟ أى معان ؟ أى عواطف ؟ أى بساطة فى العواطف ؟

إننا نعيش فى مجتمع ينافق بعضه بعضاً . إننا نحس بعواطف تطارد بعضها بعضاً : إننا نحس بالحب فى حياتنا . . ولكننا لا نعلنه . إننا لا نحس بالخلاعة فى حياتنا . . ولكننا نعلنها . إن هذه الكلمات ، تعيدنى من جديد إلى النور . . تعيدنى إلى النور وضوء النهار . إن الحب ليس عيباً . إن بساطتنا فى التعبير عنه ليست عيباً . إن الشوق واللهفة والتفاؤل والبهجة . . ليست عيباً . إن الحياة . . ليست عيباً .

إن عبد الوهاب يعيدنى إلى الحياة وهو يقرأ الشعر . إن الناس تعرف فى عبد الوهاب صفات كثيرة ، ولكن ليس من بينها أنه يقرأ الشعر . حينما يقرأ عبد الوهاب شعراً فأنت لست أمام قارئ ، ولا شاعر ، ولا ملحن . أنت أمام شخص طرف فى الأمر . أنت أمام صاحب المشكلة . أنت أمام شخص يتعذب . . إذا كان الشعر عذاباً . أنت أمام عاشق . .

إذا كان الشعر عشقاً . وأمام ثائر . . إذا كان الشعر ثورة . وأمام حالم . . إذا كان الشعر حلماً .

وهذا الشعر . . كان حلماً .

بهذا الشكل الذى أسمعه من عبد الوهاب . . فأنا أمام الحلم . أمام البساطة . أمام الجمال . إن عبد الوهاب يذكرنى بأن الجمال موجود فى الكلمات من الأصل من السودان . إن الهادى آدم شاعر من السودان. حالم من السودان. إنه مثل كل الحالمين . . ومثل كل السودانيين . . لديه تلك البساطة فى التعبير عن العواطف شعراً . بساطة لا تعرف الصخب ، ولا التعقيد ، ولا الفلسفة ، ولا النفاق ولا التقعر ولا الفساد ، ولا لابتذال ولا الخلاعة ، ولا الملل ، ولا اللف والدوران ، ولا التكرار . إن الإحساس صادق فى قلب الشاعر ، والمعنى واضح فى عقله ، والكلمة عالية على لسانه . أنا أحب . أحترق . أخاف . أخشى . أنتظر . أحتمل . أنعم . أتعذب :

إنه عذاب من نوع جديد . عذاب صادق ، بسيط ، طبيعى . عذاب اللهفة والشوق والأمل . . وليس عذاب اللوعة والفراق والهجر والصد والحرمان والشقاء . لقد اعتدنا على العذاب — كثيراً من العذاب — فى أغانينا . ولكن الذى اعتدناه أكثر هو دائماً عزول أو حاسد يدخل بين كل عاشقين كطرف ثالث يفرق بينهما أو يطاردهما أو يراقبهما أو يطلق عليهما الإشاعات . إن الحب فى أغانينا لا يعتبر حباً إلا من اللحظة التى يدخل فيها هذا « العزول » طرفاً ثالثاً . قبل « العزول »

لا يوجد حب . بعد « العزول » يوجد الحب . . ولكن يوجد معه أيضاً ، العذاب والبكاء والأنين والجراح والفراق والشكوى والهجر والخوف والصد والتمنع والدموع . .

فى هذه القصيدة الجديدة القادمة من السودان : لا دموع .

فى هذه القصيدة الجديدة حب وشوق ولهفة وحنين ودعاء ورجاء وظنون وخوف ونداء ، ولكن : لا دموع .

* * *

منذ شهرين . الظهر . نادى الجزيرة . المجموعة . الغداء . الأكل . السلاطة .

الناس على مائدتنا هذه المرة سلاطة ! هذه جلستنا الأسبوعية التى نتبادل فيها هموم الأسبوع وأشواقه ونغسل نفوسنا من متاعبه . متاعب هذا الأسبوع — كما هى دائماً فى كل أسبوع — هى الأفلاس ! إن أكثرنا إفلاساً هذه المرة هو صديقنا الفنان الساحر أحمد رجب . إنه أكثرنا إفلاساً ، مع أن المظاهر كلها توحى بعكس ذلك تماماً . إنه صاحب دعوتنا اليوم . إنه الضحية . . التى يحتفل كل هؤلاء اليوم بها . . ويتناولون الغداء حتى آخر مليم فى جيبها . إن « الكل » هذه المرة هم : يوسف وهبى . . إبراهيم الوردانى . . كمال الملاخ . . جميل أبو المجد . . و . . و . . وأنا !

صمت تام . يوسف وهبى يتكلم : عبد الوهاب هو أذكى فنان عرفته فى حياتى . إن الفن هو عمره . . والموسيقى هى شاغله . . وإرضاء الجمهور هو مزاجه .

كمال الملاخ يعلق : هذا صحيح . . إنه قدوة لكل من يريد أن يبنى مستقبله من الصفر .

أحمد رجب يتدخل : عبد الوهاب ده . . أستاذ . . أسطى . . معلم . الموسيقى عنده علم وصناعة وحرفة وإخلاص . . وحب .

* * *

إلى الحب . بيت عبد الوهاب من جديد . الصباح . الموسيقى . البروفة الأولى .

دخلت إلى بيت عبد الوهاب لأجد كل شىء فيه قد تغير . هذا بيت شخص آخر لا أعرفه . أين الصالون ؟ أين الكراسى ؟ أين الهدوء ؟ أين الصمت ؟ . .

لا شىء .

لا شىء أمامى سوى كراسى خشبية تبدو غريبة على هذا البيت . . كراسى تجلس عليها فرقة الموسيقى كاملة . . بمعداتها وآلاتها . . وبعبد الوهاب أمامها .

إن عبد الوهاب — كما أراه متلصصاً من بعيد — ليس هنا . ليس معى ولا مع أى أحد ولا أى شخص سوى نفسه وموسيقاه ولحنه . . والفرقة التى يدربها أمامه . إن عبد الوهاب لا يرانى — وسوف تكون جريمة كبرى لو رآنى — وأنا أختلس كرسياً فى صمت وأنزوى فى ركن من المدخل لأستمع فى هدوء وأذوب فى صمت .

عبد الوهاب يغنى .

غداً تأتلق الجنة أنهاراً وظلا
وغداً ننسى فلا نأسى على ماضٍ تولى
وغداً نسمو فلا نعرف للغيب محلا
وغداً للحاضر الزاهر نحيا .. ليس إلا

ما هذا ؟ موسيقى ؟ نعم . ولكن ما هذه الرقة . . هذا التصوير . . هذا الأمل . . هذا التفاؤل . . هذا الرفض ؟

ما هذا يا عبد الوهاب ؟ هذا سحر . متعة . روعة . عظمة . لحظات من الصمت .

إنه صمت داخلى . إن الموسيقى تنساب من عود عبد الوهاب . . إلى آلات فرقته . . إلى أذنى . . إلى قلبى . إنها تحرك فى داخلى أشياء لا أستطيع لأول وهلة أن أحددها بدقة .

إن هناك لحظات نادرة فى الحياة . . يحس فيها الإنسان أنه حرج من جلده . ذاب داخل جلده . لحظات تحس فيها أن كل شىء داخلك خرج من مكانه . . وسقط فى غير مكانه . . ثم ارتفع من جديد إلى آفاق لم تكن تعلم من قبل أنها موجـــودة . هناك لحظات نادرة فى الحياة . . تحس فيها أنك استمعت لشىء ، فى حالتى هذه استمعت لعبد الوهاب ، ثم أضاءت البطارية فى رأسى فجأة . أضاءت الجوانب المظلمة فى رأسى وكشفت المناطق المجهولة فى خيالى . . وحركت الآمال الناقصة فى قلبى .

هناك لحظات نادرة فى الحياة — والآن واحدة منها — تحس فيها

أنك أصبحت سائلا . . أصبحت شيئاً ذائباً : أنا الآن أذوب . . أتفاءل . . أحب . إن موسيقى عبد الوهاب تنقلنى إلى آفاق جديدة لم أكن أعلم من قبل أننى سأصل إليها . إننى الآن — قبل موسيقى عبد الوهاب — أحس أننى كنت أهيم فى صحراء . . فى رمال وفضاء وفراغ وسراب وضياع وأوهام وملل وخوف وقلق ومجهول ومساحات واسعة من لا شىء .

إننى الآن — بعد هذه الموسيقى من عبد الوهاب — أحس أن بندول الساعة قد انتقل فى قلبى فجأة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . الآن لم يعد الحب جريمة ، الآن أستطيع أن أنزل إلى الشارع وأهتف بأعلى صوت ممكن :

أنا أحب . أنا أعشق . . أنا أذوب . . إن حبى ليس جريمة . . إن عذابى ليس ضرورة . . إن حلمى ليس مستحيلا . أنا أحب ، إذن فأنا ما زلت حياً . . ما زلت شاباً . أحب عينيها ، شفتيها ، همستها ، أحب الدفء فى صوتها . . والحرارة فى كلماتها . . والصدق فى انفعالاتها إننى أحب . إننى — حتى — أحب خوفها . أحب خوفها من الرقيب . . أحب إقبالها على الحياة . إننى أحب . إننى أحب اللحظة التى مرت منذ خمس دقائق . . وأنتظر اللحظة التى ستأتى بعد خمس دقائق . إن لحن عبدالوهاب — بكلماته هذه — يضيف إلى حياتى شيئاً جديداً أحبه . يضيف إلى : المستقبل . يضيف إلى : غداً . إن غداً لم يعد بالنسبة لى شيئاً مجهولا قد يأتى وقد لا يأتى . لم يعد غداً مخيفا . لم يعد قدراً أحمل همومه مقدماً.

إن غداً، بهذا الشكل الذى يغنى له عبد الوهاب ، هو سعادة قادمة فى الطريق . هو جنة تتألق . هو أنهار وظلال . هو حب واشتياق .. هو أحلام اللقاء .

أغداً ألقاك ؟

نعم ، بالتأكيد سوف ألقاك . بعد أن أخذ قلبى هذه الشحنة العاطفية الضخمة من عبد الوهاب . . فإننى سوف ألقاك . غداً سوف نسمو « غداً لن نعرف للغيب محلا ، غداً للحاضر الزاهر نحيا ليس إلا » غداً سوف أحب وأحلق وأسمو وأعشق وأنعم وأتذكر . غداً سوف يهتز قلبى ويضىء عقلى ويشتعل إحساسى وتتزاحم انفعالاتى . غداً سوف يرتفع رأسى وتسقط مخاوفى وتختفى أوهامى وتذوب مشاعرى وتزيد رقتى وتتحقق أحلامى .

غداً سوف يحدث كل هذا . . ليس إلا . ليس إلا .

* * *

بعد أسبوع . الأربعاء . باق من الزمن ٢٤ ساعة . إن الزمن فى هذه المرة يمر دقيقة بدقيقة . ثانية بثانية . إن أعصاب عبد الوهاب متوترة وقلقه يتضاعف . لا أحد فى البيت يتحدث معه طويلا . كلمة ورد غطاها . لو حدث أكثر من هذا فسوف يثور عبد الوهاب . هذه عادته قبل إذاعة كل لحن جديد لأم كلثوم . قبل كل امتحان . أم كلثوم امتحان . والجمهور هو المصحح فى هذا الامتحان . إن الجمهور بالنسبة لعبد الوهاب هو الوحيد الذى يملك حق « الفيتو » على العمل الفنى . إن عبد الوهاب

– مثل كل فنان عظيم – عمل طوال حياته بالتحالف مع الجمهور . . خادماً له . . حليفاً معه . . سيداً عليه. لقد أعطى للجمهور ما يشعر به .. لقد أعطاه ما يريده .. ومن وقت لآخر .. أعطاه أكثر مما يتوقعه .هذه نقطة لابد أن تكون واضحة بالنسبة لكل من يدرس شخصية عبد الوهاب. إن عبد الوهاب لا يضع ألحانه لإرضاء النقاد ، ولا لإرضاء أسرته ، ولا أصدقائه ، ولا حتى الأجيال القادمة من بعده . إنه يلحن من أجل مستمعيه . من أجلنا نحن . إن مستمعيه يعرفون ذلك. إنهم متأكدون مقدماً من شيء واحد : أن عبد الوهاب لن يخيب ظنهم .. فى عبد الوهاب .

* * *

الليل . منتصف الليل . سلامات وأشواق وحرارة وقلق وطمأنة من القلق و . . حديث بالتليفون مع عبد الوهاب عن الموسيقى . إننى قلت لعبد الوهاب – فى تلك المكالمة التليفونية قبل الحفل بساعات – أشياء قليلة ، ولكننى لم أقل له شيئاً واحداً : إنه فعل الكثير للموسيقى الشرقية . إن عبد الوهاب ولد فى عصر كان كل شيء فيه يفتقر إلى البساطة . كانت هناك المطولات فى الصحف ، والسجع فى الأسلوب ، والزخرفة فى المبانى .. والتكرار فى الكلمات . إن ما فعله عبد الوهاب كان بسيطاً وضخماً فى قت واحد : لقد وضع نهاية لعصر السجع والزخرفة فى الموسيقى والغناء . إن الآخرين فعلوا ذلك فى الصحافة والعمارة والأدب والشعر . . ولكن عبد الوهاب كان هو الذى فعلها فى الموسيقى . لقد أدخلنا عبد الوهاب عصر السرعة والبساطة والاختصار . البلاغة هى الاختصار .

إننى أسأله وهو يرد على باختصار :

ــ ما هى أهم صفة ؟

ــ فى إيه . .

ــ فى الحب ؟

ــ التضحية . .

ــ فى المرأة ؟

ــ الحنان . .

ــ فى الرجل ؟

ــ الفهم . .

ــ ما هو أكبر مقلب ؟

ــ القمر . .

ــ أخطر امرأة ؟

ــ الكاذبة . .

ــ أصدق شخص ؟

ــ الطفل . .

ــ أضخم مشكلة ؟

ــ السعادة . .

ــ أعظم أمنية ؟

ــ السعادة أيضاً . .

ــ أحلى ساعة ؟

ـــ الآن . .

ـــ أحسن يوم ؟

ـــ غداً .

* * *

غداً البروفة الأخيرة . نحن فى الليلة الكبيرة . اليوم هو الخميس . اليوم هو الامتحان . اليوم يقول الطرف الرابع كلمته . الجمهور .

إن اللحن الذى وضعه عبد الوهاب أصبح اليوم مكتملا تماماً . كل شيء فى مكانه ، كل فرد فى كرسيه ، كل عاطفة فى محلها . إن اللحن أصبح الآن مكتملا ــ فى عقل عبد الوهاب ــ وعلى أوتار الفرقة الموسيقية . إن الأغنية سوف تبدأ بمقدمةموسيقية بحتة اعتادها الجمهور من عبدالوهاب إن المقدمة فى هذه المرة « وهابية » مائة فى المائة . إن الآلات تتبادل « الحوار » فى المقدمة ، بصوت عال فى لحظة ، وبهمسات منخفضة فى اللحظة التالية . لقد سئل عازف مرة : ما هى الموسيقى ؟ فأجاب قائلاً : هى القوة والضعف .

وفى المقدمة الجديدة يطبق عبد الوهاب هذه القاعدة بأمانة : القوة والضعف . الارتفاع والانخفاض . العذاب والمتعة ، التردد والأمل ، النار والجنة .

وطوال الأغنية تحس أن شحنة التفاؤل تتزايد فى اللحن شيئاً فشيئاً ، إلى أن تصل إلى قمتها ، فتقترب من الرقص ، فى الكوبليه الأخير ، الذى ينتهى كما هو فى كل مرة بسؤال يتزاحم فيه الأمل والرجاء: أغداً ألقاك ؟

إن عبد الوهاب فى هذا اللحن هو عبد الوهاب التاسع عشر . إن هذا هو لحنه التاسع لأم كلثوم ، ولكن عبد الوهاب نفسه هو تاسع عشر . هو الجلالة . هو الملك . هو الإمبراطور .

ولأننى أشفق على أعصاب عبد الوهاب من ليلته مع الجمهور ، فقد سألته : أغداً ألقاك ؟

ورد عبد الوهاب وهو يستعد للتوجه إلى الحفل : نعم .

قلت : ولكن فى رأسى الآن سؤالا مخزوناً منذ عدة أشهر : ماذا كنت تقول ليوسف وهبى ؟

ـ متى ؟

ـ عندما قلت له : صندى عناب جاس . . . . .

قال عبد الوهاب ضاحكاً : آه . . دى الشفرة السرية بينى وبين يوسف وهبى . معناها . . عندى ناس ! إنها لغة خاصة نتفاهم بها ـ هو وأنا ـ عندما لا أريد لأحد معى أن يتابع حديثى معه . .

وقلت لعبد الوهاب : أتمنى لك التوفيق . . مع تحياتى . .

ورد عبد الوهاب : صعدين بوغاشا سلمنى كرفس . . الترجمة : بعدين كلمنى . . !

الدنيا ..
التي كانت أم كلثوم !



- أخبار اليوم .. عدد أول فبراير ١٩٧٥ .

خلق الإنسان ضعيفاً

* * *

لم أكن أنظر إلى أم كلثوم أبداً كإنسانة ضعيفة . رأيتها دائماً كإنسانة عاشت خمسين سنة من حياتها على الصفحة الأولى . فمن يومها الأول فى القاهرة وهى تعلم جيداً مهمتها فى الحياة . كانت مهمتها هى أن تذهب مع الحياة إلى أعلى تماماً .. أو إلى أسفل جداً . نعم. فى حياة أم كلثوم لحظات كثيرة خفية تعرضت فيها من الحياة إلى خطر الهزيمة النهائية .

مع ذلك كانت المهمة أمامها واضحة : مع الحياة . . إلى أعلى ، أو إلى أسفل . . لا شىء فى الوسط . أم كلثوم لم تكن وسطاً فى أى شىء . فى البداية فقيرة جداً ، ثم بعدها : فى العشرينات : مطربة. فى الثلاثينات : نجمة ، فى الأربعينات : معجزة . فى الخمسينات : كوكب الشرق . فى الستينات : أسطورة . فى السبعينات : عنيدة وجريحة أيضاً .

آه . . نسيت أن أقول شيئاً فى كل كلمة سابقة . هناك دائماً كلمة «جداً» . إن أم كلثوم فى حياتها كانت أى شىء وكل شىء ، ولكن : جداً ، جداً ، جداً

فى حياة أم كلثوم لم يكن هناك شىء مؤجل سوى الفقر. إننى لا أتذكر من الذى قال : إنك إذا ذقت الفقر مرة . . فإنك لن تكون غنياً مطلقاً .

أم كلثوم لم تكن تحس أنها غنية مطلقاً .

معها نقود الأغنياء ، ولكن ليس معها غطرستهم . مجرد تناقض واحد

من مائة تناقض فى حياتها . إن فى شخصيتها مزيجاً من النار والهواء . فى صوتها المطر والشمس . فى عمرها الطول والقصر . فى حياتها البساطة والانغلاق . فى منزلها الصمت والضجة . . العزلة والزحام .. الفقر والغنى ، معاً . .

* * *

منزل أم كلثوم فى هذه الأيام تحول إلى مجرد « سويتش » . إنه سؤال واحد يحمله التليفون : كيف حال الست ؟

إن الست بخير . هكذا يرددون الكليشيه منذ أيام . بالطبع ليست هذه هى الحقيقة مطلقاً ، ولكن ، إذا سألت عن الحقيقة . . . فالقصة بداية أخرى . هل تتذكر ذلك اليوم من شهر مايو سنة ١٩٧٢ ؟ نعم ، بالضبط . من هناك تبدأ رحلة أم كلثوم مع العذاب .

* * *

مدينة لندن :

السياح والزحام والشمس والشراء والضجة و ــ حسنا ، إنها لندن فى الصيف. هيلتون لندن. الدكتور حسن الحفناوى عاد لتوه من المستشفى مع زوجته أم كلثوم . عاد الاثنان ، فرحين متفائلين . الآن تمت كل الإجراءات ، ووصلت التحليلات ، وجاءت كل الأدوية ، واستقرت كل الطمأنينة . الآن يدخل الزوجان إلى الفندق ، إلى الأسانسير ــ إلى ..

لقد سقطت أم كلثوم مغشياً عليها .

صرخ الدكتور حسن : الحقونى من فضلكم . . الحقونى بملح ، ملح ملح . . .

لقد دفع الزوج الطبيب بالملح إلى فمها بيديه . بعد قليل بدأت أم كلثوم تسترد وعيها . قليلا قليلا قليلا ، ثم : عادت أم كلثوم إلى الحياة .

عادت ، ولكن . . . بإيقاع بدأ يصبح بطيئاً ، بقدم إلى الأمام وقدم إلى الخلف ، بالطلقة الأولى فى صراعها مع الحياة والمرض . لقد بدأ شد الحبل .

كان يوم الثلاثاء . هل تتذكره ؟ نعم أتذكره — ١٧ مايو ١٩٧٢ . من يومها بدأ العد التنازلى .

* * *

التليفون .

— ياصديقى أم كلثوم تريدك غداً فى استوديو ٤٧ بمبنى التليفزيون .

قلت للموسيقار بليغ حمدى : خير ؟

ضحك صديقى بليغ فى التليفون قائلا : تسمع تسجيلها للأغنية الجديدة التى قمت أنا بتلحينها .

— ولكن أم كلثوم لا تحب أن يشاهدها أحد وهى تسجل . .

قال بليغ : ما على الرسول إلا البلاغ . .

قلت : معك الحق ، أنت أبلغتنى . . وأنا لن أذهب !

* * *

ستوديو ٤٧ — بعد أسبوع .

ابتسامتها تملأ الاستوديو . الموسيقيون يتزاحمون خلفها . المهندس زكريا يراقب . بليغ قلق . أنا مضطر لاقتسام القلق معه ، فلا يوجد غيرنا .

أم كلثوم تخرج .

إنها جاءت لتستريح . أهلا ، أهلا ، أهلا ، و . . .

ــ لازم ما تجيش إلا إذا كلمتك أنا ؟

قلت لها : إنك صاحبة الحق فى ذلك .

شيء ما ، كان يقلقنى ، لا يمكن أن تستدعينى أم كلثوم بهدف سماع بروفة . لا هى عادتها ولا أنا أريد . إذن . . ماذا ؟

قالت أم كلثوم بطريقة عابرة : مش تقول مبروك لمدحت ؟

قلت : نحن لسنا أصدقاء تماماً ، ولكن باعتباره ابن ابن شقيقتك . أقول له مبروك . . إنما ، على إيه ؟

قالت أم كلثوم بشعور من الفخر والاعتزاز : خطبت له بنت ناس كويسين أوى . .

ــ عظيم .

صمت .

ثم قالت أم كلثوم : انت هاتتجوز امتى ؟

قلت : مش عارف . .

قالت : على فكرة أنا فيه حاجة محيرانى فيكم انتم ولاد اليومين دول . . انتم ما بتتجوزوش ليه ؟

ـ مش عارف . . أنا لم أفكر . .

ـ أمال بتفكر فى إيه ؟

بعدها حاولت أن أثرثر فى أشياء كثيرة بلا معنى . إنها « الأم » .. أم كلثوم . الرقيقة ، أم كلثوم . إنها تتكلم عن بنت الناس وبنت الأصول ومدحت واهتمامها بمدحت و . . بدأ التسجيل .

* * *

بليغ حمدى يروح ويجىء ويجلس ، ويروح ويجىء ويجلس ، و . . .

ـ ما تقعد يا بليغ بلاش نظام القلق ده . .

سألنى بليغ : انت مش حاسس بحاجة ؟ أم كلثوم تعبانة جداً . . أول مرة صوتها يتقطع .

فى الواقع إن التسجيل نفسه تقطع .

إنها خرجت لاهثة وضعيفة ومتهالكة و : ألقت بنفسها فوق الكرسى .

ـ خير . . مالك ؟

ـ لا مفيش . مجرد دوخة . فين اليانسون ؟

جاء الينسون . إنها تنفست بعمق ، وارتشفت بحرارة ، وقررت بحسم : فلينصرف الموسيقيون .

إننا جلسنا فى ارتباك : بليغ وأنا . ارتباك وقلق .

بعد قليل بدأت هى تتحدث . الوجنتان تهتزان . الحاجبان يصعدان ويهبطان . الجبهة تبدو متوترة قليلا . ومع ذلك فالشفتان تشعان ابتسامة

مضيئة . إن الكلمات حنونة والابتسامة مستمرة ، ولكن . . هناك شرخ في هذه الابتسامة . خير.

قالت أم كلثوم : هيه يا بليغ . . نكمل التسجيل بكرة . . إذا طلع كويس ، عندى لك مفاجأة كويسة .

قال بليغ ضاحكاً : تدينى الساعة ؟

تطلعت أم كلثوم إلى ساعتها الفضية الأنيقة : بس دى ساعة حريمى ياولد انت . . وبعدين أنا ما قدرش أقول لك لأ . . انت عارف . . إنما ممكن واحدة تضحك عليك وتاخدها . .

بليغ يضحك ويندهش ويتساءل : معقول يا ثومة ؟

قالت ثومة : والله يا خويا كل حاجة معقولة معاكم . . أنا عارفة إيه اللى جرى لكم ؟ !

* * *

ـــ جرى إيه ياست . . ؟

وجهت إليها السؤال ونحن فى السيارة متجهين إلى منزلها . سؤال خرج من فمى ، مشحوناً بالتردد والتلعثم بقدر مافيه من القلق .

قالت أم كلثوم ضاحكة : عايز تقول إيه ؟

فعلا أريد أن أقول . كلنا نريد أن نقول . ولكن . . كيف ؟ لقد ترددت قبل أن أفرغ بسرعة ما أريد أن أقوله وأستريح .

ردت أم كلثوم : أعتزل الغناء ؟ سهل جداً . سهل ومريح . إننى حتى أستطيع أن أجد عذراً مناسباً لذلك . مع هذا فإننى أعرف فى داخلى

إننى لو قررت الاعتزال . . فهذا معناه نهايتى ، لا أستطيع . . لا أستطيع. إننى أحسب عمرى بعدد مرات وقوفى على المسرح .

بعدها حشر الصمت نفسه بيننا . السيارات والشوارع والإشارات ، وصدق فظيع فى كلماتها . إن كلماتها الأخيرة وقتها كانت : هيه ؟ هاتيجى التسجيل بكره .

إننى لم أكن أعلم بعد أنه تسجيلها الغنائى الأخير ، لهذا قلت : أكيد ، لكن هل أنت بخير؟

نعم كانت بخير.

أو — لم تكن ؟

* * *

المستشفى :

هذا أول مستشفى أدخله فى حياتى .. عندما وصلت كنت قد أصبحت أنا نفسى مريضاً . كل شىء أصبح مريضاً . الصمت والهدوء والقلق والتوتر وغرفة الإنعاش . يسمونها هنا علمياً : وحدة العناية الفائقة بمرضى القلب . إننى لم أجرؤ على الدخول . أو حتى مجرد النظر . إذن . . فلأذهب إلى الغرفة ٥٠١ . . فربما يوجد شىء مطمئن .

* * *

الأربعاء : المغرب . الخامسة إلا الربع .

إنهم أطباء الكونسلتو . الكشف والتحليل فى الطابق الثانى . منزل أم كلثوم . الزمالك . المناقشة فى الدور الأول .

التحية هى : الحمد لله .

أحد الأطباء يقول : ولكن التقارير تؤكد . . .

زكريا الباز ، بشعره المتزاحم بياضاً وسواداً ، يقول : نعم ، ولكن شفت حالتها ؟ إنها لم تكن فى أى وقت مرتفعة المعنويات بقدر ما هى الآن . .

ــ طيب والعمل ؟

ــ لازم تفوضنى . . بالذات الدكتور حسن . . لازم توافقونى على أنى أقول لها . . .

* * *

الأربعاء . غرفة أم كلثوم . إنها على الكرسى . سعدية ــ بنت أختها ــ على السرير . الدكتور زكريا يتكلم . الدكتور حسن يراقب . أم كلثوم تستمع . إنها تبتسم وتضحك وتبتسم . . أخيراً تكلمت .

ــ طيب وبيقعدوا أد إيه فى جناح الكلى ده ؟

ــ من يوم حرب أكتوبر . . المريض لا يحتاج إلى أى مجهود .

ــ على فكرة يا زكريا ، أنتم كنتم أبطال فى حرب أكتوبر . كان مستشفى المعادى فخراً لنا جمعاً . . أنا سمعت عن معجزات أنتم عملتوها .

ــ يافندم حضرتك مساهمة فى كل جهاز احنا بنشتغل بيه . . كان فى حرب ١٩٦٧ جهاز واحد عندنا للكلية الصناعية . دلوقت عندنا ستة . .

ــ هيه . . يعنى انت عاوزنى آجى عندكم . ؟ أنا موافقة . .

قال الدكتور زكريا كاتماً الخبر المؤلم : دى مجرد زيارة يافندم ، وكشف روتينى .

ردت أم كلثوم ضاحكة : أنت بتزن كتير ليه ؟ قلت لك موافقة ياسيدى ، عايزنى إمتى ؟

تشجع الدكتور زكريا واستجمع كل دبلوماسيته : احنا مش مستعجلين . . يعنى كده على يوم السبت ، نكون بس عملنا شوية استعدادات . . .

قاطعته بقلق : استعدادات ؟

ــ طبعاً يافندم . . مش لازم ندهن الجناح كله بوية جديدة ؟ أنا اخترت لك اللون البمبى . .

ــ والله أنا كنت عايزة أقول لك . .

ثم : سكتت . لقد دخل بعض الأقرباء إلى الحجرة . الكل يطمئن . الكل ينشرح ، سؤال واحد يوجهه الجميع للطبيب .

إن الطبيب يطمئنهم : الحمد لله . . الحمد لله . . حتى قومى كده ياست وافردى ايديكى واتمشى . . .

قامت الست وتمشت . إنها تفرد يديها إلى الأمام . عظيم . اليدان ثابتتان . إنها تتمشى أمام الجميع . . مازالت اليدان ثابتين . فجأة ، وقبل أن تبدأ اليدان فى الارتعاش ، أمسك بهما الدكتور حسن الحفناوى . . هابطاً بهما إلى جنبيها . . ضاحكاً ومؤكداً فى ثقة وتفاؤل : هايل ياثومة . . الحمد لله ، الحمد لله . .

ثم : جلس الجميع .

* * *

مازال اليوم هو الأربعاء .

الثامنة . التليفون .

قالت أم كلثوم : مين ياسعدية ؟

ردت ابنة أختها ، الملازمة لها دائماً : ده الأمير عبد الله الفيصل ياست . . طالبك من جده .

— أيوه . . أيوه . . هاتى السماعة .

قالت أم كلثوم : الحمد لله . . الحمد لله . . انت مش سامع . . قل لى . . ازى جوهرة « زوجته السابقة » ؟

— فى لندن . . كويسة

— وازى سلوى « زوجته الحالية » ؟

— كويسة . . كانت قلقانة كتير عليكى . . انت ازى صحتك ياست الكل ؟

— قل لها الحمد لله ، هو بس شوية ضعف بسيط . . ودلوقت حاتعشى . . أول مرة أحس أنى جعانة

— ابعت لك طيارة فيها خروف . .

— (ضاحكة) لا ، ابعت لى الأميرة سلطانة (طفلته الصغيرة) . . هى لسه عفريتة ؟

— طول النهار شقاوة ولعب . .

– (ضاحكة) ياخويا طالعة لابوها . . أنت ما بتشتغلش ليه اليومين دول ؟

– اشتغلت ، عملت ديوان جديد حاهديهولك . .

– استنى على بس شوية . . أنا عايزة الأول أعمل لك الحتة اللى كانت عاجبانى ولازم أعملها . .

– آه ، اللى اسمها . .

– أسمها « فرحة حب » . . انت ناسى ولا إيه . . بقالها عندى سنة . . أنا حاكلم رياض بكره ، يبتدى يشتغل فيها . .

– رياض السنباطى ؟ عظيم . . ما بنريدك تفكرى فى الغنا هلا . . دلوقت المهم صحتك . .

– صحتى ياخويا حديد . .

ثم : انتهت المكالمة .

* * *

إنه طعام شهى . طعام ومساء وجو شهى . النيل من النافذة . الصحف على السرير . أطباق الطعام فارغة على المائدة . مدحت ومحمد ودسوقى والدكتور زكريا حولها .

قالت أم كلثوم : المرة الجاية ياسعدية عايزة آكل مسقعة .

قال أحدهم : والله زمان . . المسقعة

ردت أم كلثوم : زمان ليه ؟ ما احنا فيها . . الخير كتير والحمد لله . .

– بس الأسعار . . الأسعار . .

قالت أم كلثوم : آه صحيح ، بس طول البلد ما هى . .

قال محمد : زمان كانت العشرة صاغ تكفى الواحد يعيش منها ويأكل فاكهته وتكفى كمان يشرب . .

تساءلت أم كلثوم : يشرب إيه يامحمد ويسخم إيه ؟ أنت مابتشربش حاجة . .

— مش أنا . . كان فيه ناس معانا همها الشرب . . يعنى مثلا كان فيه واحد صاحبى غاوى يشرب سبرتو أحمر . .

قاطعته أم كلثوم : لا ، وانت الصادق . . دول كانوا بيشربوا طافية !

— وحشتنا قفشاتك ياست . . انتى كمان فاكرة الحاجات دى ؟

— أمال . . وفاكرة كمان إن البيضة كانت بمليم . . هى دلوقت بكام ؟

— بقرشين ، وساعات بثلاثة كمان . .

— يعنى العشرة صاغ بتاعتك كانت بتجيب كام بيضة ؟

— مايه . .

— ياه .. ! يعنى العشرة صاغ زمان كانت تساوى أربعة جنيهات دلوقتى ؟ لا . . كتير صحيح . .

سعدية تتدخل فى الحديث .

قالت سعدية ضاحكة ومتفائلة : أظن كفاية كده ياثومة . . مش كده ياحبيبتى ؟

ثم : صفقت بيديها مستبشرة ومتفائلة وآمرة . إنها ليلة الصحة والأمل والدعاء والحمد والتفاؤل .

* * *

١٠ : ٤٥

دخل الدكتور حسن . . إنه قادم من المستشفى خير ، خير ، خير . .

ــ ازيك ياثومة . .

ــ الحمد لله ياحسن . . حاسه إنى حديد زى ما انت شايف

ــ ربنا يخليكى لينا ياثومة . . حتنامى ؟

ــ آه ، حانام على طول . حاسة إنى عايزة أنام على طول . .

ــ طيب ياحبيبتى استريحى . أنا جنبك .

ثم انصرف الدكتور حسن إلى حجرته المجاورة . الحجرتان يفصلهما تواليت وباب . إنه أغلق التواليت ، وفتح الباب . سعدية رفعت فيشة التليفون وأطفأت النور. تصبحى على خير .

* * *

يارب .

* * *

غرفة أم كلثوم .

الثالثة فجراً .

انشقت الأرض فجأة عن صرخة فزع . سعدية فى حالة فزع : إيه

ياثومة ؟ إيه ياحبيبتى ؟ مالك ياروحى ؟ . أنتى صحيتى ؟

قالت أم كلثوم : دماغى . . دماغى

تساءلت سعدية فى فزع : مالك ياحبيبتى ؟ سلامتك يانورعينى . .

قالت أم كلثوم فى صوت مكتوم وألم بالغ : صداع . . عندى صداع ياسعدية . .

أحاطت سعدية رأس أم كلثوم ووجهها بيديها . . فجأة أحست بيديها مبلولتين : خير ياثومة . . . انتى عرقانة ياحبيبتى . . ؟ الدنيا حر ؟ انتى ...

ثم : إنه ليس عرقاً . إنها دموع أم كلثوم . أول دموع من أم كلثوم .

قالت أم كلثوم : الحبوب. دماغى . . صداع . . دماغى . .

ارتبكت سعدية وأخذت تبحث عن حبوب الصداع . يداها عصبيتان قلبها يرتجف .. إنها فى حالة ارتباك تام . . يارب .. كانت أمامها حبات الأسبرين حالا . . ولكنها لا تراها .

نعم .. الإسبرين ما زال أمامها ولكنها لا تراه .. لا تراه .. لا تراه

ثم : رأت الإسبرين . .

قرص و قرصان وكوب مياه . . ثم أعادت أم كلثوم رأسها إلى الوسادة . أعادتها ولم تتحرك .

* * *

التليفون . الحرارة . النجدة . الأطباء . الدكتور حسن يوقظ الجميع . إنه الدكتور زكريا الباز. حالا حالا . من الدقى إلى الزمالك فى خمس

دقائق . حالة غيبوبة . هبوط . صدمة . الضغط . النبض . التنفس . دكتور رشاد برسوم . السيارة . محمد الدسوقى يبحث عن سيارته . إنها فى آخر الجراج . لا ، لا . لن ينتظر السيارة. إنه يجرى فى الشارع ، بالروب والبيجاما والشبشب . يجرى . خير . خير . دكتور يحيى طاهر . أدوية تحاليل أدوية . الخامسة. المستشار وجدان طاهر . عايزين حقن كورامين . سعدية تستغيث بزوجها المستشار وجدان : اسمع ، روح عندنا فى البيت . . أيوه ، فى الدولاب ، ثانى رف على اليمين . مظبوط . ثلاث حقن كورامين . بسرعة يا وجدان .

السيارات . أدوية. تحاليل. أدوية . وصل الكورامين. أدوية. تحاليل. أدوية . الإغماء مستمر . عاد التوتر . عاد الخوف . يارب . عايزين حقن كالسيوم . مدحت يجرى إلى السيارة . إنها السادسة صباحاً . لا ، لا ، مش كفاية .. الدكتور يحرر نسخة أخرى من الروشتة. ممدوح يجرى . سيارة أخرى. الشارع . السرعة . نعم . نعم، هذه الصيدلية مفتوحة . هنا . بجوار عمارة ليبون .

أدوية . تحاليل . أدوية .

وصل مدحت .. صيدلية الجمهورية .. وصل ممدوح .. صيدلية الزمالك . أدوية . الضغط . النبض . التنفس. لازم نقيس التنفس . . التليفون . سيارة قلب حالا . أوكسيجين . إنها الثامنة والنصف. الإغماء . شخص آخر من الأسرة أصيب بإغماء . الأطباء أصبحوا مرضى . . والمرضى أصبحوا فى حالة إغماء . هدوء . هدوء . لا بلاش عصبية .

بلاش عصبية من فضلكم . قالها الدكتور بعصبية .

الإسعاف . الدموع . المستشفى. لا سيدات من فضلكم . سعدية فقط . القافلة . المعادى . حجرة الإنعاش إنها الحجرة ٣٣٤ . الكشف . قناع الأوكسجين . التحليل . الخطر . إنها العاشرة إلا الربع من صباح الأربعاء لحظة لا تنسى مطلقاً . قبل تلك اللحظات كانت أم كلثوم فى رعاية الأطباء .

من الآن فصاعداً . . أم كلثوم فى رعاية الله .

* * *

يارب .

* * *

الطوارىء . التليفونات . القلق . رئاسة الجمهورية على التليفون . الغرفة ٥٠١. أنور السادات . مزيد من القلق . القصر الملكى من الرياض . دمشق على التليفون . بيروت . الخرطوم. تونس. السؤال والإجابة والقلق بينهما . القلق والوحدة .

* * *

أن تكون قريباً من أم كلثوم . معناه أن تعيش فى دنيا أم كلثوم . دنيا أم كلثوم هى الغناء . إن الغناء كان هو فكرتها الأولى عن الحياة . إن اللغة داخل منزلها كانت هى دائماً : ما هو موعد الحفلة ؟ موعد التسجيل ؟ موعد البروفة ؟

حينما تغنى ، أو حتى تستعد لكى تغنى ، فإنها كانت تطير فى

الهواء . حتى وهى فوق كرسى . إنها تسبح فوق المسرح كما لو كانت لها أجنحة خفيفة غير مرئية . لحظتها تذوب الإنسانة فى صوتها . لحظتها يمتصها صوتها بحيث لا يبقى منها أى شىء آخر . إنها تغنى عن الحب . . عن دموع . . عن رقة تموت . . أو دفء يبدأ . . عن عاشقة وحيدة . . عن ذكريات . . عن هزيمة عاطفية . . عن سؤال توجهه . . عن ألف ليلة وليلة . . عن رقة الحب . . عن دنيا جديدة كاملة من الأمل والألم .

دنيا أم كلثوم الآن مليئة بالألم . إنه الألم والوحدة . لقد حققت لنفسها الحب ، والشهرة ، والمركز ، والصيت ، والنفوذ ، والثروة . لقد غنت ونجحت واستمرت .. بحيث بدا الزمن وكأنه محايد معها . . بل وحليف لها فى أحيان كثيرة !

ولكن الفنان ينسى أنه فى اللحظة التى يصنع فيها مجده . . فإنه فى الواقع يصنع فيها أيضاً سجنه . ان الفنان الذى يجعله جمهوره نجماً لامعاً . . يصبح فى نهاية المطاف وحيداً ، وحزيناً . وحيداً مع شهرته الواسعة . . وحزيناً على إنسانيته المتراجعة .

إنه — إذا كان رجلا — فربما تجعله النقود أكثر رخاء . وإذا كانت امرأة ، فإن الوحدة فى حياتها تصبح أكبر من أى شىء آخر . إنها — حتماً تأتى أسرع . إن الزمن هو دائماً عدو المرأة . . حتى بالنسبة لأسطورة كأم كلثوم .

إن معظم النجوم غيرها ، يقضون السنوات العشر الأخيرة من حياتهم فى صحبة الأقراص المنومة ، أو الخمر ، أو أى شىء آخر يساعدهم على

التخلص من ليل طويل.. موحش وحزين . ليل من الوحدة .. والانتظار.. والأمل فى صباح مزدحم . إن الزحام يتراجع دائماً مع الظلام . الآن ينتهى الفنان . . ويبدأ الإنسان . هنا يبدأ الليل .

فى ظلام الليل تأتى الوحدة القاتلة . الوحدة مع ألبوم صور قديمة .. أو خطابات أيام مضت . . أو تسجيلات يوم بعيد . . أو حتى مجرد الوحدة مع إعلانات التليفزيون .

ولكن أم كلثوم بدت دائماً بغير زمن . بغير عصر . إنها عاشت دائماً فى القمة . وعندما انتهى الغناء راحت القمة ، وراحت معها علامات الحياة ذاتها .

وفى حياتها كانت الصفة المدهشة فى أم كلثوم هى أنها تجعلك تشعر فوراً بأنك فى بيتك وبين أسرتك . إنها تعطيك دائماً انطباعاً بأنك أهم إنسان فى حياتها . لقد قابلت فى حياتى ثلاث شخصيات فقط لديهم هذه القدرة ، كانت أم كلثوم على رأسهم .

ربما كان هذا هو الذى يجعلها ترقد الآن على سرير الإنعاش وسط بحر من الوجوه الصديقة التى ظهرت فجأة . إنها الآن تغنى أصعب ألحانها تغنى أغنيتها الشخصية . إن لدى رغبة جارفة فى أن أراها من زجاج الغرفة ، ولكن فى داخلى أيضاً خوف مطلق من أننى لن أستطيع .

* * *

الغرفة ٣٣٤ :

لا يمكن . هذه ليست أم كلثوم . هذا مجرد كاريكاتير . إنه

كاريكاتير أم كلثوم . إن حجرة الإنعاش هذه . . هى آخر حصن تحتمى به ، وآخر احتياطى تنفق منه ، وآخر سور تتراجع إليه ، وآخر نقطة تنكمش فيها . إن الحياة هنا تمضغها ، والمرض يمضغها والصراع مع المرض يمضغها . لقد أصبحت الآن نموذجاً لضعف الإنسان قبل أن تكون دليلا على عظمته .

إننى لا أصدق . لماذا أصبح قلبها بهذا الصمت . . وشفتاها بهذا السكون . . ونومها بهذا الطول . . ؟ لماذا تبدو الغرفة باردة هكذا ؟ إن سعدية ترتجف داخل الشال الأحمر الذى أحاطت به نفسها . لا شيء تفعله سوى أنها تبكى وتتطلع إلى أم كلثوم .

إنها ترقد فى السرير ، بحزمة تجاعيد حول ركبتيها ، سعدية تتألم فى صمت إلى جوارها . منذ ٤٨ ساعة وهى متيقظة حولها . إن زوجها المستشار يكلمها. حرام عليكى يا سعدية حرام عليكى نفسك. سامعانى ؟ استريحى شوية . . استريحى يا سعدية . . إننى أغوص ، أتلوى . إننى . حسناً قلت لك استريحى شوية يا سعدية .

* * *

الغرفة ٥٠١

دكتور حسن . محمد . مدحت. ممدوح . دسوقى . الجميع فى حجرة واحدة ولكن لا يجمعهم سوى دخان السجائر. إن أم كلثوم الفنانة جعلت الحياة بالنسبة لنا أكثر احتمالا ، ولكن أم كلثوم الإنسانة تجعلنا الآن أكثر ضعفاً . إننا نتفادى النظر إلى بعضنا وفجأة تتسمر عيوننا على وجوه بعضنا

البعض . لقد أطبقت علينا جدران الحجرة ودخانها . سجاير . سجاير سجاير . كان الطبيب بيننا هو العلاقة الوحيدة لنا فى العالم الخارجى . . وعندما خرج بدت المسألة كما لو أنه قد سحب معه من الحجرة كل الأوكسجين الذى يجب أن نتنفسه .

إننا نثرثر بكلمات لا معنى لها . كلمات تدور عن كل شىء إلا عن الموضوع الرئيسى الذى تجمعنا بسببه . لقد قررنا ألا نتكلم فى صحة أم كلثوم . ولكن الأمر بدا كما لو أننى قلت لنفسى فى الدقيقتين التاليتين لن أفكر فى صحتها . . صحتها . . صحتها . . صحتها . .

ماتت أم كلثوم .

* * *

خلق الإنسان ضعيفاً .

كتب للمؤلف

دراسات سياسية

- ممنوع من التداول - (دار الشروق) - الطبعة السابعة
- أفكار إسرائيلية - (كتاب الإذاعة) - الطبعة الثانية
- الحرب الرابعة - سرى جدا - (المكتب المصرى) - الطبعة الثالثة
- متمردون لوجه الله - (دار الشروق) - الطبعة الثالثة
- وعليكم السلام - (دار المستقبل العربى) - الطبعة الثالثة
- بالعربى الجريح - (دار المعارف) - الطبعة الثانية

دراسات أدبية

- أفكار ضد الرصاص - (دار الشروق/دار المعارف) - الطبعة التاسعة
- شخصيات (دار المعارف) الطبعة الثانية
- سياحة غرامية (دار الشروق) الطبعة الرابعة
- مصرى بمليون دولار (مكتبة الأنجلو) الطبعة الثالثة
- أوراق إلى حبيبتى (دار الشروق) الطبعة الأولى

دراسات فنية

- أم كلثوم التى لا يعرفها أحد (كتاب اليوم) الطبعة الرابعة
- محمد عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد (دار المعارف) الطبعة الثالثة

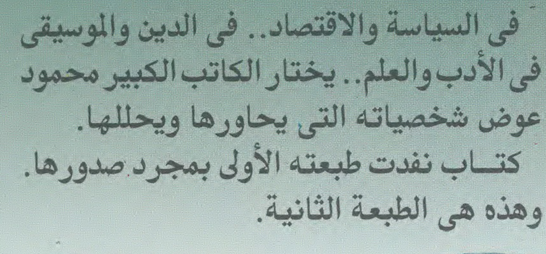
فى الرواية والقصة

- أرجوك لا تفهمنى بسرعة (روز اليوسف) الطبعة الثالثة
- شىء يشبه الحب (كتاب اليوم) الطبعة الأولى

تحت الطبع

- اليوم السابع (دار ميريت)
- مختارات (دار ميريت)

الفهرس


فى السياسة والاقتصاد.. فى الدين والموسيقى فى الأدب والعلم.. يختار الكاتب الكبير محمود عوض شخصياته التى يحاورها ويحللها.

كتـــاب نفدت طبعته الأولى بمجرد صدورها. وهذه هى الطبعة الثانية.

دار المعارف